بسم الله الرحمن الرحيم

المنهاج الرمضاني

كيف نفهم الصيام وكيف نبني به حياتنا؟

EL-MENHEC EL-RAMADANİ

KEYFE NEFHEM EL-SIYAM VE KEYFE NEFHEM NEBİ BİH HAYATUNA

MİTHAT ALKASRAWİ

1. Baskı: İstanbul
2025 - 1446

المنهاج الرمضاني

كيف نفهم الصيام وكيف نبني به حياتنا؟

مدحت القصراوي

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

غراس للإنتاج الفكري

المنهاج الرمضاني

كيف نفهم الصيام وكيف نبني به حياتنا؟

مدحت القصراوي

القياس: 21.5 X 14.5 سم

عدد الصفحات : 112 ص

ISBN: 978-625-5521-16-3

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

GHIRASCENTER

غراس للإنتاج الفكري

info@ghirascenter.org

+90 531 437 25 99

مكتبة الأسرة العربية®

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

غـراس
للإنتاج الفكري

مركز غراس للإنتاج الفكري

هو مؤسسة غير ربحية، تُعنى بتحرير القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية المعاصرة. تأسست في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٣ الموافق جمادى الأولى ١٤٤٥ للهجرة.

يسعى المركز للمساهمة في معالجة القضايا المجتمعية ونشر ثقافة محصنة ضد الاختراقات الفكرية والأخلاقية في عالم تزاحمت فيه الأفكار، وتصادمت فيه التساؤلات، وغدت الحيرة عنواناً لكثير من الناس.

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فما زلنا سائرين إلى ربنا تعالى حتى نلقاه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشِقَاق: ٦]، وما زلنا سائرين لإقامة هذا الدين وبلاغه، ببلاغ حقيقته وإقامة حكمه ونظامه ومنهجه..

وفي الطريق إلى ربنا تعالى يرسل الله تعالى مواسم الخير؛ وفي تعاقب الليل والنهار آيات وعبر وفرص، فإنها مراحل نقطعها إلى الله تعالى، قال الحسن البصري «ابن آدم إنما أنت أيام، فإذا مضى بعضك مضى كلك»، وقد جعل الله في الليل والنهار آية لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا، فإذا نظر إلى معاصيه تذكر، ومن نظر إلى نعم ربه شكر، وأنت بين نعمة من ربك ومعصية من نفسك..

وقد أوصى الله تعالى بالتقوى فهي غاية نبتغيها، وقد جعل الله تعالى لحصولها طرقا فأعاننا عليها بشرائعه، ومنها الصيام، الذي نص تعالى على رجاء العباد التقوى بامتثاله، وخبّأ تعالى أجره «**الصوم لي وأنا أجزي به**».. فلله الحمد على ما تفضل به من الشرائع وله الحمد على ما وعد من الأجر.

وفي الصيام مشقات يقف عندها البعض ومصالح جاءت بها الشريعة، فأردنا بيان موقع كل منهما وكيف يتلقاهما المؤمن.

وفي الصيام تقلب بين ألوان من العبادة، بين الصوم والصلاة والذكر والقرآن، والاستغفار ورجاء التقوى، وارتباط هذا بمنهج الأمة وهويتها وحركتها بهذا الدين علماء ومجتمعات.. إن هذا الدين حزمة واحدة لا يقبل التفريق، هكذا أنزله الله وهكذا أوجب أن نقوم به؛ فأردنا النظر في موقع هذه التعبدات وكيفية تذوق المؤمن لها..

عندما نمتثل أمر الله في شعيرة فلا بد من النظر الكلي إلى بقية الشعائر والشرائع والتعبدات الخاصة والحراك العام بهذا الدين؛ فلا ننفصل في صيامنا عن بقية ما أوجب الله تعالى، ولا نقدم صورة من التناقض نخدع بها أنفسنا أننا نمتثل، ونغضب ربنا في ترك ما أمر، ونشمت عدونا بالتلاعب بهذا الدين، ونخدع أجيالا تنشأ على ما تظن أنها قد استوفت ما أمر الله، وإنما لم تذق الإسلام شاملا، منهجا وغاية، ومشربا حضاريا ورسالة، ولم تعلم أن واجب إقامة هذا الدين وتمكينه وتحكيمه وقيادته للأمة هو في رقبتهم جميعا بمقتضى إسلامهم..

من هنا كانت تلك الرسائل، خطابا لأرواحنا وقلوبنا لتشفى من سقمها وعللها، وخطابا لعقولنا لنعيَ عن الله تعالى أمره..

اللهم أودعناك ما أمرتنا ببلاغه، فاللهم أحي به القلوب واشرح له الصدور واكتب له القبول وأحي به الأمة.. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وصلى الله وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الآن.. تجديد البدايات

قبل أيام رمضان ولياليه نذكر إخواننا أن المسلم لن يجد شيئا أفضل من تجديد البدايات.. لا أقصد بهذا التوبة فقط، بل التوبة جزء منه..

ما دامت الحياة مستمرة فإنه ليس من شيء أنفع من محاولة أن تعيد رؤية موقعك بين الدنيا والآخرة، وأن تحدد طريقك ومأخذك، وتقصيرك وعيبك، وسقطاتك المتكررة.. فإنك في سفر دائم غير منقطع.

ليس من شيء أنفع من أن تحدد الأفق الذي تريد أن تصل إليه، وأن تُعيد جمع عزمك عليه، وتلمّ ما فرط منك من عزم مهدر وإرادة مشتتة وقوى ضائعة أو معطلة، وأن تراجع سبب التأخر وتفرق العزم والتراخي عن الطريق..

هناك فرصة أن تحدد من أنت، وماذا تريد، وما الطريقة التي تريد أن تحيا بها، بل وما الصورة التي تريد أن تكون عليها إذ للإنسان صورتان: صورة ظاهرة لا حيلة له فيها، وصورة باطنة وهي خُلقه وشخصيته وهذه يمكن أن تعيد تكوينها وصياغتها.. بل يجب ذلك.

للمؤمن أفق، لدنياه وأخراه.. ولا أنفع له من زمن يعود إليه فيقف ليراجع ما كان وما تبقى له وما يمكن أن يكون عليه بل وما يجب أن يكون عليه..

من العار أن تبقى حاملاً للعيوب نفسها على مدار عشرات السنين، هي هي،

بنفس قبحها وآفاتها، ومن العار الأشد أن تبقى تُؤتَى من العيوب نفسها ويدخل عليك الشيطان من الأبواب نفسها ويسرق منك السرقات نفسها وأنت في حال استسلام ثم تنتظر القيامة لتندم؟! هذا ضعف عجيب وتفريط لا مبرر له.

أعِد صياغة نفسك.. كن ما تريد أن تكون عليه، الْمِس الأفق الذي كان يراود حلمك..

لا تترك نفسك لصدفة عابرة ولا تحلم بموقف طارئ أو بتغيير سحري؛ فإن التوكل على الله أعظم من كل سحر تتصوره أو خيال ترنو إليه..

اعلم أنك لن تبيت ليلة فتصبح شخصا صالحا تنمحي عنك العيوب وتتحلى بالفضائل وترتفع إلى الأفق الذي تريد..! بل هو قرار تأخذه هنا ويرسو بك في الجنة، أو تتراجع فيكون غير ذلك..!!

من سبق إلى الجنة والمعالي لم يكن عنده شيء لا تملكه، بل عنده بشريّتك وضعفك نفسها، وآمالك وآلامك.. كان الإنسان نفسه، وافترقتما في القرار والإرادة..

ولهذا فثمة فرصة جديدة سانحة اليوم؛ فجدد بداية أمرك وطريقك وسلوكك، ولعل الله تعالى أن يحسب لك عملك وأجرك بأحسن مستوى وصلت إليه ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٣٥].

الرحمة في تناول الطيبات حيث أُمرت، وتركها حيث أُمرت

إن الله تعالى الذي خلق الإنسان وخلق حاجته للطعام والشراب، وخلق له الأطعمة والأشربة، أمره أن يأكل مما خلق له من الطيبات، وحرّم عليه أن يحرم على نفسه من تلقاء نفسه، وحرم عليه أن يتقرب إلى الله تعالى بترك الطيبات التي لم يحرمها الله تعالى ولم يأمر بتركها، وعدّها رهبانية غير مقبولة.. ولمّا همّ بعض أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بترك اللحم والطيبات وترك النساء والتبتل، نهاهم عن هذا، وأخبرهم أن هذا مخالف للتقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المَائِدَة: ٨٧–٨٨].

والله تعالى رحيم وكريم ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ؟..﴾ [الأَعۡرَاف: ٣١–٣٢]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

فترْك ما أحل الله تعالى ليس قربة بإطلاق، فقبول التحليل والتحريم عبادة متصلة بالتوحيد وأصل الدين، وترك ما أحل الله تعالى إن كان على وجه التشريع

بتحريم ما أحل فهو شرك، وإن تُرك على وجه القربة لله تعالى بلا دليل يدل على استحباب الترك فهو بدعة مردودة في وجه صاحبها.

فتحريم ما أحل الله تعالى جريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البَقَرَةِ: ١٦٨] وبإجماع المفسرين، فخطوات الشيطان هنا هي أمره بتحريم ما أحل الله تعالى على وجه القربة إليه، وكذا قوله تعالى بعد ذكره لما خلق من الزروع أخبر تعالى أنه أنشأ من الأنعام: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ [الأَنۡعَام: ١٤٢]، يعني العالية الظهر لحمل الناس والمتاع كالإبل، والقريبة من الأرض كأنها فرش، كالضأن والمعز، ثم قال تعالى آمرا وناهيا: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾ [الأَنۡعَام: ١٤٢]..

إن الذي خلق هذا وأمرنا أن نأكل منه وحرم علينا الامتناع، هو سبحانه من أمرنا بترك الطعام والشراب والشهوة نهار رمضان، فكما أن عدم تحريم ما أحل الله تعالى وقبول إباحته؛ عبادة.. فكذلك الامتناع عما نهى عنه وقت ما نهى عنه؛ عبادة، فيُعبد الله تعالى بهذا وهذا، تمتنع حيث أمرك وتتناول حيث أمرك، هكذا عبد الله..

وكما أن الإنعام بالنعم من المنن العظام، فاعلم أن الرحيم الذي خلق لك ما تقتات ونهاك أن تشق على نفسك أو تمتنع، حتى أنك تأثم، بل قد يكون سببا لدخول النار، لو امتنعت عن الطعام والشراب حتى تهلك ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾ [النِّسَاء: ٢٩-٣٠].. هذا الرحيم سبحانه هو الذي أمرك أن

تمتنع أياما معدودات في رمضان، فاعلم أنه كما أنّ خلْق الطيبات وإباحتها مِنّة، فاعلم أنّ تركها والنهي عنها في وقت محدد، لأمره تعالى، مِنّة أيضا..

وكما أن الخلق جاء بأمر من الخالق الرحيم، والتناول مأمور به من المشرع الرحيم، فاعلم أن الامتناع بأمره تعالى أيضا من المشرع الرحيم سبحانه وتعالى، فكما أن تناولك رحمة فاعلم أن امتناعك رحمة.. ثق في هذا وتعامل مع الله تعالى على هذا..

افتقار الخلق لتشريع ربهم تعالى وطاعته كما هم مفتقرون إلى إطعامه إياهم وربوبيته

اعلم أن الله تعالى لا يشرع لك ليتكثّربك من قلة أو يغتني من فقر أو يتعزز من ذلة، حاشا لله..

والله تعالى لا يشرع لعباده ليشق عليهم ولا يقصد تعالى إعناتهم، بل إن الله ما يشرع لك إلا لمصلحتك، فإنه تعالى يشرع لك ليجمع لك الخيرفي الدارين ويحصل لك مصالحك..

والعبد فقيرإلى الله تعالى، فقيرإليه من جهة الربوبية، فيحتاج إلى ربه تعالى؛ يغذوه، يطعمه ويسقيه، ويشفيه ويعافيه..

وثمة فقر آخر، كهذا وأشدّ، إلى الله تعالى من جهة ألوهيته، فهو مفتقرإلى عبادته، وطاعته، والسعي والحفد إليه، وطلبه وقصده وإيثاره ومحبته.. فلا سرور للقلب ولا نعيم ولا صلاح ولا اطمئنان إلا بهذا القصد وهذه المحبة وهذا العمل.

وتحصيل العبد لمصالحه لا يستقل بها أبدا، فالعبد من حيث هو إنسان، محتاج إلى الله تعالى، ليشرع له ويبين له: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾ [النِّسَاء: ٢٦]، ولهذا سمى تعالى ما أنزل نورا مبينا ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النِّسَاء: ١٧٤] وقال ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢]، وسمى جملة الرسالة رحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأَنبِيَاء: ١٠٧].

ومن هنا شَرع تعالى الصيام، وسائر تشريعاته، في العبادات والمعاملات وسائر الارتباطات والعلاقات الفردية والجماعية، لا لإعنات ولا لمشقة، بل لتحصّل مصالحك، فالله أعلم بك منك، وأعلم بما يصلحك، وما تقترحه هو الذي يشق عليك بينما ما شرعه لك هو تحقيق لرحمته ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحُجُرَات: ٧] يعني لو يطيعكم في اقتراحاتكم لكانت مشقة عليكم.

يقول ابن كثير (ثمَّ بَيَّن تَعَالَى أَنَّ رَأْيَهُمْ سَخِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ مَصَالِحِهِمْ فَقَالَ: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أَيْ: لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وحَرَجكم) ا.هـ.

فشرعُ الله تعالى لكم هو الرحمة، ورأيكم لأنفسكم أحمق في مقابل ما شرع تعالى..

فمن هذا المأخذ شرع لك الصيام، بل وسائر الشرائع.. فبهذا المأخذ يتناول العبد تكليف الصيام ويتقبله ويتلقاه من ربه تعالى، وبهذا المأخذ يتلقى من ربه تعالى سائر التكاليف.. والحمد لله.

المصالح هي المقصودة والمشقات تابعة وجارية على قوانين دارنا وسعْنا تكاليفَه، ووسعَنا رزقُه

شرع الله تعالى لك لتحقيق مصلحتك، وشرعه رحمة لك، فرحمة الله تعالى مضمنة فيما شرع، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فعُلم أن الرحمة مضمَنة في الرسالة، والرسالة هي جملة ما أخبر وشرع سبحانه على لسان رسوله الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

فلا تقترح وجه الرحمة على الله تعالى وتناقض به ما شرع لك، ولكن الرحمة مفصَّلة في أحكامه تعالى وشرائعه، فما بدا لك غيرذلك فاتهم نفسك بيقين.

المصلحة هي المقصودة في التشريع، وما حصل من المشقات فهو ليس بمقصود في الشرائع، وإنما هو تبع لتحقيق المصالح، وما حصل منها معمول حسابه في ميزانك فتجازَى عليه.. (يراجع الموافقات للشاطبي).

ورغم أنه ليس مقصودا لكنه معمول حسابه في الثواب والأجر.

لقد جرت أحوالنا في هذه الدار في تحقيق مصالحنا أن تتحقق بنوع من الجهد.

هكذا تحصيل الطعام والشراب والمساكن والولد والعلم وغيره، وعلى عادة دارنا وعلى قوانين هذا العالم جاءت الشرائع، قد يستلزم تحقيقها، لتحقيق

مصالحها المقصودة، نوعا من المشقة المعتادة في دارنا، ومن طلب مصلحة بلا نوع من المشقة فليطلب عالما غير هذا العالم.. لكن جرى هذا العالَم على نوع من المشقات المحتملة، وهكذا نزلت الشرائع، فجاءت على اعتيادنا.. قيل لشيخ الإسلام: ماذا لو جرت المصالح والمنافع بلا عوارض أو مشقات؟ فقال: يكون عالم غير هذا العالم. [يراجع الموافقات للشاطبي، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم].

لكن ما يجب القطع به أننا وسعْنا تكاليفه تعالى لأنها في وسعنا، ومعنى أنها في وسعنا، أننا نطيقها وأكثر منها، ولذا أثنى شيخ الإسلام على تفسير سفيان بن عيينة للآية، قال سفيان بن عيينة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَةِ: ٢٨٦] قال: يسرها، فلم تأت الشرائع بغاية الوسع بل جاءت باليسر، يعني بأقل مما نطيق.

يقول رحمه الله.. «فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنَّ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ مَقْدُورٌ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرٍ لَهُمْ وَلَا ضِيقٍ وَلَا حَرَجٍ؛ بِخِلَافِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الشَّخْصُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ وَلَكِنْ فِيهِ ضِيقٌ وَحَرَجٌ عَلَيْهِ وَأَمَّا وُسْعُهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فِي سَعَةٍ فَهُوَ دُونَ مَدَى الطَّاقَةِ وَالْمَجْهُودِ؛ بَلْ لِنَفْسِهِ فِيهِ مَجَالٌ وَمُتَّسَعٌ وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلضِّيقِ وَالْحَرَجِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَج: ٧٨] بَلْ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٥] قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلَّا يُسْرَهَا لَا عُسْرَهَا وَلَمْ يُكَلِّفْهَا طَاقَتَهَا وَلَوْ كَلَّفَهَا طَاقَتَهَا لَبَلَغَ الْمَجْهُودُ.فَهَذَا فَهْمُ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ».[مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣٨)].

وعلى هذا فقد وسعْنا التكاليف وفي الوقت نفسه قد وسعَنا الرزق لنستعين به على التكاليف والقيام بها، فالرزق يسعنا ونحن نسع الشرائع فلله الحمد.

وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث يقول رحمه الله.. «اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ فَكَلَّفَهُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا يَسَعُونَهُ وَأَعْطَاهُمْ مِنْ الرِّزْقِ مَا يَسَعُهُمْ فَتَكْلِيفُهُمْ يَسَعُونَهُ وَأَرْزَاقُهُمْ تَسَعُهُمْ فَهُمْ فِي الْوُسْعِ فِي رِزْقِهِ وَأَمْرِهِ: وَسِعُوا أَمْرَهُ وَوَسِعَهُمْ رِزْقُهُ فَفَرْقٌ بَيْنَ مَا يَسَعُ الْعَبْدَ وَمَا يَسَعُهُ الْعَبْدُ وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِرَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَغِنَاهُ» [مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣٧)].

وقال تعالى فيمن رغب عن شرعه وحكمه ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦٦]، يعني أنا لم نكتب عليهم هذا بل كتبنا عليهم ما في يسرهم ووسعهم، فكيف يرغبون عما شرع وحكم سبحانه وقد شرع لهم اليسر؟! هكذا نتلقى الصيام وسائر الشرائع من ربنا سبحانه فلله الحمد.

فإذا لقي العبد ربه كان نعيما بلا منغص وعالما آخر بقوانين أخرى.. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾ [فَاطِر: ٣٥] هكذا اقتضت حكمة الله تعالى.

نتلقى اليوم شرائعه تعالى، عالِمين أن المصلحة مقصودة وأن المشقة تابعة، وأنها جرت على قوانين دارنا وعالمنا، وأنها في وسعنا ويسرنا، وأن هذا لمدة قليلة، ثم ننقلب إلى حيث لا نغص ولا تعب ولا كدر.. فاللهم بلغنا رضاك والجنة وقنا سخطك والنار.

الأعمال ومنافعها ومشقاتها العارضة ونتائجها المتولدة، مكتوبة للعبد

ما حصل من المشقات في التشريع الرباني ليس بمقصود بالقصد الأول، ولكنها تابعة للمصالح المقصودة لمنفعة العبد..

لكن كل مشقة حدثت مكتوب أجرها، حتى ما طرأ، وكل مصلحة تحققت من أي عبادة لها أجرها ولو تحققت عرضا من العبد، فالعمل، وأثره، وما تولد منه، وما طرأ عليه، وما اكتنفه من مشقة مكتوب عند الله تعالى..

واعتبِر في هذا بالجهاد، فإن الله تعالى ذكر أنه يكتب للعبد كل ما يقوم به، وأنه يكتب له ما طرأ عليه من مشقة عارضة، ويكتب له ما تولّد من عمله من مصالح وإن لم يعلم بها أو حصلت بلا قصد، غير أنه امتثل ما أُمر بها من قبل ربه تعالى.. ذكر تعالى في سورة التوبة هذا، وكان المتوقع في الآية أن يذكر تعالى جزاء الأعمال، ثم يذكر تعالى ما طرأ عليها من مشقة أو عرض للعبد، ويذكر ما نتج من مصلحة تولدت من العمل.. لكن نظم الآيات غاير هذا فذكر تعالى ما تولد من الأفعال وما عرض من المشقات أولا، وأنه تعالى يكتب به للعبد «أعمالا صالحة» رغم أنها ليست أعمالا، بل هي مشقات عارضة ونتائج متولدة، ومع ذلك تُكتب للعبد «أعمالا»، فلما جاء ذكر العمل بعدها ذكر تعالى أنه يكتبه للعبد، فعلم أنه تعالى إن جازى على الآثار والمشقات العارضة جزاء الأعمال، فكيف بجزاء الأعمال نفسها؟.. وانظر إلى نظم الآيات..

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

[التَّوْبَة: ١٢٠–١٢١]..

وانظر إلى من ربط خيل واحتبسها في سبيل الله، انظر إلى أجور لم ترد ببال صاحبها، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت من طيلها ذلك من المرج والروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين، كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له..**» الحديث.

وعلى هذا المجرى الصيام ومشقاته، والجهاد ومشقاته ومنافعه، والصلة ومشقاتها ومنافعها، والعفة والعدل والصدق كذلك، وعلى هذا سائر التكاليف..

فثق في رحمة وحكمة وعظم جزاء من شرع لك الصيام، وبهذا المأخذ وبهذه اليد تناول تكليفه تعالى، وكل ما يكتنف هذا التكليف وما ينتج عنه وما يعترضه.. فلله الحمد.

العبادة والتوكل قرينان فاعمل بحوله لا بحولك، وقوته لا بقوتك، تكن محمولا ومعانا

قد تجد في الصيام أو الصلاة أو الجهاد أو العلم أو البلاغ، أو الحياة عموما مشقات، ولا بد..

قد تجد في دحر الباطل ومواجهة الظلم والطغيان والاستبداد والفساد، نوعا من المشقة، ولا بد من ذلك، فعلى هذا جرى هذا العالم.. وبهذا جرت سنة الله تعالى وحكمته.

لا قوة لك على هذا إلا بمعونته تعالى وحوله، ولهذا قرن تعالى عبوديته بالتوكل عليه، فإن توكلت عليه أعانك فقمت بما أمر من صيام أو صلاة، جهاد أو علم، مواجهة الظلم أو الباطل أو الطغيان.

لا تتم توبة ولا استقامة ولا هدى ولا علم إلا بتوكل.

في حركة الحياة ومواجهة الباطل تصير بالتوكل ستارا للقدرة، فيصبح الأثر لا لعملك أنت بل يصبح عملك سببا، ويصبح الأثر لقدرة الله تعالى الطليقة.

واعتبر في هذا بإلقائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كفا من حصى يوم بدر، فقد ألقى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كفا من حصباء، فكان جهده وتعبده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يرمي به، لكنه قرن عبودية الامتثال بعبودية التوكل، فبتوكله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان وصول الحصباء بقدرة الله تعالى؛ فما تركت مشركا إلا وأصابت عينيه ومنخريه.

وقف المسلمون يوم بدر يتعبدون بالثبات والتضحية، وبالتوكل قتلوا صناديد الشرك، حتى قال سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه بعدها «وجدنا عجائز صُلعا بُدنا فنحرناها»، ولم يقدروا على هذا إلا بالله تعالى، وقد نهاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: يا ابن أخي أولئك الملأ، وروي أنه ما زال متغيرا عليه حتى سأله سلمة فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإنك عمدت إلى نعم من نعم الله تزهدها**».

ثم فتحوا الدنيا، بجيوش كانت غالباً أقل بكثير من عدوها، وغالب النسبة كانت كل رجل يقابل ستة أو سبعة من الكفار، فانتصروا، وفتحوا القلوب قبل البلاد، وتوطن الإسلام واهتدى الخلق بهم وأقاموا حضارة لأكثر من ألف سنة، أعظم وأقوى، وأرحم وأهدى حضارة في التاريخ.

وإن لم تتوكل عليه وكلك إلى نفسك وخذلك، فكنت كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» فإن أراد تحصيل مصلحة يتعس ويقع فلا يحصل مطلوبا، وينتكس فينقلب على وجهه، وهذا غاية السوء وخيبة السعي، وإذا أصابه مكروه ولو شوكة عجز عن استخراجها بالمنقاش «**وإذا شيك فلا انتقش**» فهو عاجز عن تحصيل مطلوب له، وهو عاجز عن الهروب من مكروه ضار له..

فمن توكل أفلح حيث عمل بحول ربه تعالى لا حول نفسه، وعمل بقوة ربه تعالى لا قوة نفسه، وهذا سريع الخطو إلى الله تعالى، يقوى على ما لا يقوى عليه غيره، كيف لا وهو عامل بقوة ربه وقدرته وحوله تعالى.

ولهذا قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وقال ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، وقال ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرَّعْد: ٣٠]، وقال ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هُود: ٨٨].

المتـوكِل محمـول ومُعـان، ويكفـي هـذا لعبـد يريـد ذلـك السـفر العظيـم إلى رب العـالمين.

اليـوم وغـدا التـوكل وبعـد غـدٍ التـوكل.. إلى إقامـة الديـن، وإلى لقـاء الله تعـالى، وحتى اسـتيفاء التعبـد إلى آخـر لحظـة.. ولهـذا كانت «لا حول ولا قـوة إلا بالله كنز مـن كنـوز الجنة».. فنسـأل الله تعالى ولاية أمرنا في الداريـن وحملنا بحوله وقوته إلى دار السلام..

الرحمة فيما أمر لا فيما تظن

إذا علمت أن شريعة الله تعالى كلها رحمة وحكمة ومصلحة وخير، فلا تفترض أنت طريقة هذه الرحمة وتفصيلاتها وتعارض بها شريعة الله تعالى، بل العلم بأوجه وتفصيل تلك الرحمة يعلمها الله تعالى لا أنت، وإلا لما احتاج الناس إلى الشرائع إذا استغنوا بعقولهم، لكن تقرر بالعبرة من استقراء حياة الناس في كل جاهلية -خاصة الجاهلية العالمية المعاصرة- كما تقرر من كتاب الله تعالى أن ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦].

إن الله تعالى يقرر أن الرحمة في الصيام وإن ظمأ صاحبه وجاع وتعب، ويقرر تعالى أن الرحمة في الجهاد وإن أصيب صاحبه أو استشهد أو تحمل مشقات.. وهكذا كل ما شرع.. الرحمة ثَم.. الرحمة هناك.

بل نزل قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦] نزلت في شأن الجهاد ومشقاته، لما كره البعض القتال وتبعاته، وأُعلم المسلمون حينئذ أن الرحمة في الجهاد مهما كانت مشقاته، إذ هو رحمة للحياة، وإلا استعلى الباطل وفسدت الدنيا وأسنت الحياة واستبيح المسلمون دينا وأعراضا ودماء ومقدرات.. وقد كان.

ولولا الجهاد لشُوه الحق وزُين الباطل وفُتن المسلم عن دينه، وصُد من أراد الهدى عن الحق.

بل ولولا الجهاد لظن أهل الباطل أنهم على حق، وأنهم لولا أنهم كذلك لما غَلبوا واستقروا واطمأنت بهم الحياة..

أوليست هذه كلها رحمات؟ بل هي بعض مما ضمّن تعالى أحكامه وأوامره من المصالح والرحمة والحكمة.

وهكذا مشقات الحج، والنفقة، والصلة، والعفو والصفح، والكف عن الشهوات المحرمة.. هكذا كل ما شرع تعالى.

فاقتراح وجه الرحمة على الله تعالى سوء أدب من جاهل لا يعلم، وتقديمٌ بين يدي الله ورسوله، وهذا منهي عنه..

فمن أراد معرفة الرحمة فليتتبع أحكام الله تعالى وأوامره، فهناك الرحمة يقينا لا فيما تظنه.. هكذا تتلقى أمر الله بالصيام وهكذا تتناوله بيد العبودية، وهكذا سائر التكاليف.

إن حرا أو طول نهار، مجيء رمضان صيفا أو شتاء.. إن الجهاد وما يستتبعه من ألم البذل أو ألم الفقد أو الجرح أو الشهادة.. وكذلك الإنفاق، وغيره مما أمر تعالى، كل هذا معمول حسابه عند الله تعالى، والله يعلمه، وليس شيء من ذلك يغيب عن رب العالمين، فكن واثقا متلقيا بيد الاطمئنان والثقة في حكمه تعالى..

فإنك كما ترى الرحمة والحكمة في خلقه، فهكذا الرحمة والحكمة في شرعه تعالى، فكما ترى هذا فلْتَرَ ذلك، فإنهما من نفس المشكاة، هذا خلقه وذاك أمره..

فلله الحمد على ما خلق وعلى ما أمر.

من خلق ورزق، له الأمر والشرع، ومن له الأمر والشرع هو الذي يملك القدر.. فكيف يطاع غيره؟

إن الذي خلق الإنسان وحاجته للطعام والشراب، وخلق له الطعام والشراب، وخلق الوجود كله، وخلق قوانين الحياة، وسيّر الشمس والقمر وأجرى النجوم والأفلاك، وبث من كل دابة، وأعطى لكل مخلوق خلْقه، ثم هداه لطريقة حياته وسننها..

إن الذي خلق هذا الخلق وأبدعه هو الذي له حق الأمر والنهي للعبد، فله وحده حق التشريع، وليس لمن لم يخلق ولم يرزق أن يعتدي على حق الله تعالى فيشرع بغير إذنه، معه أو من دونه.

والذي يشرع للعبد هو الذي يملك له قدَره، فيرتب له من الأقدار، ويخلق له ما يليق بطاعته أو معصيته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطَّلَاق: ٢] هذا شرعه بطاعة أمره واجتناب نهيه.. ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣] هذا قدره وخلقه في الدنيا.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذا شرعه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطَّلَاق: ٤] هذا خلْقه وقدَره المطلق في الدارين.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذا شرعه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطَّلَاق: ٥] هذا خلقه وقدره في الآخرة.

ليس لغير الخالق أن يشرع، ولا يملك غير الخالق المشرع ترتيب القدر والخلق المترتب على طاعة العبد وامتثاله لأمر الله تعالى أو معصيته له.

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦] فهذا شرعه وأمره ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦] فهذا خلقه وقدَره المترتب على الطاعة، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦] فهذا معصية لأمره وشرعه، بتكذيب خبره، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦] فهذا خلقه وقدره المترتب على المعصية.

لن تجد هذا في أي قانون، لن تجده إلا في شرعة الله تعالى.. لذا فالأمن كل الأمن في طاعة الله تعالى، ولهذا قال إبراهيم ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾؟ [الأَنْعَام: ٨١] ثم أجاب ببداهة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأَنْعَام: ٨٢]، وقال للمشركين ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم﴾ [الأَنْعَام: ٨١]، فإن آلهتكم لا تملك قدَرا لأحد فكيف أخافها؟

وأُمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٨]، وقال له ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾! [الزُّمَر: ٣٦]، وأُمر أن يقول ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

لا يحق لأحد أن يتعدى على حق الخالق في أن يشرع لعبيده، لأن أحدا لم يخلق معه.

كما لا يحق لأحد أن يشرع للعبيد، لأن أحدا لا يملك لهم قدرا ولا خلقا على أفعالهم سواه.. سبحانه في عليائه.

شرائع الله لتحصيل مصالح الدارين على وجه العموم والإطراد

عندما يشرع الله تعالى لك، لتحصيل مصالحك، فاعلم أن هذه المصالح ليست هي مصالح الدنيا فقط، بل كذلك مصالح الآخرة، فالمقصود جريان الأمور على استقامة وتوازن في الدارين..

ولم تُجعل أحد الدارين على مخاصمة مع الأخرى، بل جعل تعالى طريقهما واحدا ما التزم العبد بمنهجه تعالى المنزل، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النَّحل: ٩٧]، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

فمقصود الشرائع جريان مصالح العبد في الدنيا على أكمل الوجوه وخيرها وأجمعها، وأن تجري هذه المصالح على توازن واطراد فردا وجماعة وأمة، وأن تجري على وجه تطرد به وتستمر.

ومقصود الشرائع كذلك تحصيل مصالح العبد في الآخرة، فالذي يملك الدار الآخرة والذي وضع طرقها ومسالكها هو الله تعالى، ولا وصول للعبد لأي من مصالحه إلا إذا أخذها من تحت إذن الشارع سبحانه، على وجه العبودية والافتقار، والثقة والاطمئنان، على هذا تلقَ الصيام من ربك، كذلك سائر ما

أمر من حجاب للمرأة أو تحريم ربا أو خمر أو زنا، وكذا سائر التكاليف.. واعلم أن مرامي الحكمة من تكليفات رب العالمين أوسع مدى وأعمق تأثيرا وأبقى أثرا مما تقف عليه عقولنا القاصرة..

ثمة دار غير دارنا يشرع الله تعالى لنا لنمهد لأنفسنا منزلا هناك، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾ [الرُّوم: ٤٤]؛ فماذا عليك لو أرسلت فراشا يكون لك مهادا هناك؟.

إن الآخرة هي مقصود الرب تعالى، والدنيا طريقها ومجال العمل لها، يقول ابن القيم رحمه الله أن كل لحظة في الدنيا تقابلها آلاف آلاف السنين في الآخرة..

يقول رحمه الله: «وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْأَيَّامِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَيَّامَهُ الَّتِي تَخُصُّهُ، وَمَا يَلْحَقُهُ فِيهَا مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَيَعْلَمُ قِصَرَهَا، وَأَنَّهَا أَنْفَاسٌ مَعْدُودَةٌ مُنْصَرِمَةٌ، كُلُّ نَفَسٍ مِنْهَا يُقَابِلُهُ آلَافُ آلَافٍ مِنَ السِّنِينَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ، فَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ قَطُّ نِسْبَةٌ إِلَى أَيَّامِ الْبَقَاءِ، وَالْعَبْدُ مُنْسَاقٌ زَمَنَهُ، وَفِي مُدَّةِ الْعُمُرِ إِلَى النَّعِيمِ أَوْ إِلَى الْجَحِيمِ، وَهِيَ كَمُدَّةِ الْمَنَامِ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ حَيٌّ وَقَلْبٌ وَاعٍ، فَمَا أَوْلَاهُ أَنْ لَا يَصْرِفَ مِنْهَا نَفَسًا إِلَّا فِي أَحَبِّ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ، فَلَوْ صَرَفَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ وَتَرَكَ الْأَحَبَّ لَكَانَ مُفَرِّطًا، فَكَيْفَ إِذَا صَرَفَهُ فِيمَا لَا يَنْفَعُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا صَرَفَهُ فِيمَا يَمْقُتُهُ عَلَيْهِ رَبُّهُ؟ فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ». [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٤٧)].

فمن نظر إلى تحقيق مصالح الدنيا، فليعلم أن مقصود الرب تعالى تحصيلها على اطراد وعموم، له ولغيره من إخوانه من الخلق، وعلى اطراد واستمرار..

وليعلم أيضا أن مقصود الرب تعالى أن تُصلح شرائعه للعبد آخرته، فمصالحها مضمَنة في نفس وجه تحصيل مصالح الدنيا، قال تعالى:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [النِّسَاء:١٣٤]، فإن صادمت الشريعة لذّة هنا فاعلم أنها لعوض هناك، وإن أُجهدت هنا فاعلم أنه لصلاحك هنا ولراحتك هناك..

ثمة يوم قريب.. قريب قريب.. يطلع بصرك على عالم آخر وخلق آخر وموازين أخرى، وستجد عدتك هناك وجُنتك وسبب رقيك في مدارجها هي نفس هذه الشريعة المباركة، فاسعد بها يا عبد الله واستمسك، فإن الخيرثَم..

الانكسار بين يدي الله تعالى

كما أننا فقراء لتشريع الله تعالى لنا، في العبادات والعادات، وللفرد وللأمة عموما.. فإن قلوبنا مفتقرة للانكسار له تعالى وبين يديه.

إننا نريد الوصول إلى الله تعالى، وأقرب طريق إليه عز وجل هو انكسار القلب له، والقلب المنكسر لله تعالى يقترب من الله ويقترب الله تعالى منه.

وفي الأثر سأل موسى ربه تعالى؛ فقال ربِّ أين أجدك؟ قال: يا موسى عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، أقترب إليهم كل يوم شبرا، ولولا ذلك لاحترقت قلوبهم، وفي بعض الألفاظ «يَا رَبِّ أَيْنَ أَبْغِيكَ؟ قَالَ: ابْغِنِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي أَدْنُو مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمًا بَاعًا لَوْلَا ذَلِكَ لَتَهَدَّمُوا» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٧٧)].

وقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التستري: لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ أَغْلَظَ مِنْ الدَّعْوَى، وَلَا طَرِيقٌ إلَيْهِ أَقْرَبَ مِنْ الِافْتِقَارِ، وَأَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْخَوْفُ مِنْ اللَّهِ. [مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠)].

والقلب المنكسر لله تعالى هو من يكسر إرادته الطبعية ومقتضى شهواته، لإرادة ربه الدينية الشرعية، فينكسر هواه لأمر ربه، ومحابه لمحاب ربه ومساخطه لمساخط ربه، فتنكسر مراداته لمرادات الله تعالى الشرعية التي تتضمن محابه تعالى ورضاه.

وبهذا الإنكسار لإرادات القلب، يخرج العبد من مشيمة الطبع فيولد ميلادا جديدا، بالتزامه أمر ربه لا بالعمل على مقتضى هواه وطبعه..

وفي هذا جاء الأثر عن المسيح عليه السلام «يا بني إسرائيل إنكم لن تلِجوا ملكوت السماوات -يعني الجنة- حتى تولدوا مرتين».

يقول ابن القيم رحمه الله «سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَذْكُرُ ذَلِكَ، وَيُفَسِّرُهُ بِأَنَّ الْوِلَادَةَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: هَذِهِ الْمَعْرُوفَةُ، وَالثَّانِيَةُ: وِلَادَةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَخُرُوجُهُمَا مِنْ مَشِيمَةِ النَّفْسِ، وَظُلْمَةِ الطَّبْعِ، قَالَ: وَهَذِهِ الْوِلَادَةُ لَمَّا كَانَتْ بِسَبَبِ الرَّسُولِ كَانَ كَالْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ». [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٧٠)].

ويقول ابن القيم أيضا: «والمقصود أَن القلوب في هذه الولادة ثلاثة: قلب لم يولد ولم يأْن له بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال.

وقلب قد ولد وخرج إلى فضاءِ التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرت عينه بالله وقرت عيون به وقلوب، وأَنست بقربه الأَرواح، وذكرت رؤيته بالله، فاطمأَن بالله، وسكن إليه، وعكف بهمته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأَعلى، لا يقر بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره، يجد من كل شيء سوى الله عوضاً، لا يجد من الله عوضاً أبداً، فذِكْره حياة قلبه ورضاه غاية مطلبه، ومحبته قوته، ومعرفته أَنيسه، ورضاه غاية مطلبه، ومحبته قوته، ومعرفته أَنيسه، عدوه من جذب قلبه عن الله: "وإن كان القريب المصافيا". ووليه من رده إلى الله وجمع قلبه عليه "وإن كان البعيد المناويا". فهذان قلبان متباينان غاية التباين.

وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحاً ومساءً، قد أَصبح على فضاءِ التجريد، وآنس من خلال الديار أَشعة التوحيد، تأْبى غلبات الحب والشوق إلا تقرباً إلى من السعادة كلها بقربه، والحظ كل الحظ في طاعته وحبه، وتأْبى غلبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه، فهو بين الدّاعين تارة وتارة قد قطع عقبات وآفات، وبقى عليه مفاوز وفلوات». [طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٦)].

ومن هنا يولد الشخص من جديد فكأنما حيا بعد موت، بل هو فعلا بهذا قد حيا بعد موت.. قال تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢].

عندما تتلقى التكليف من ربك تعالى فليكن هذا هدفك، فهذا غاية التربية على هذا المنهج الرباني، أن «تخرج عن داعية هواك حتى تكون عبدا لله تعالى اختيارا كما أنت عبد له اضطرارا» [الموافقات للشاطبي]، وأن تخرج من مشيمة الطبع إلى أمر الرب تعالى، وأن تضنّ بالعمل والحياة على مقتضى ما تريد إلى مقتضى ما يريد تعالى، فالحياة أغلى من أن تُنفَق على هوى شخص فانٍ..

والخسارة كل الخسارة أن تُعرَض عليك حياة لا تنفعل فيها ولا تشعر، ولا تتكلم ولا تعمل ولا تترك ولا تتخذ موقفا، إلا لله تعالى، فتتكاسل عنها أو تتردد في الإقدام عليها والأخذ بها، كيف وبهذا يسمو العمل من عمل شخص فانٍ إلى عمل متصل بالله تعالى، وهل هناك اصطفاء أو تفضيل أعظم من هذا؟

أخبرني ماذا يحول بينك وبينه؟ إنه جبل الهوى، يقول ابن القيم «بينك وبين الفائزين جبل الهوى، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه.. فاطْوِ فضل منزل تلحق بالقوم».. بلّغنا الله وإياك اللحاق بهم.

للترك والتناول بأمر الله طعم أعلى من الترك والتناول على مقتضى الطبع

كم مرة تريد أن تأكل فتأكل، أن تشرب فتشرب.. كم مرة أردت ففعلت؟

لكن أن تأكل لأمره، وتترك لأمره، وتعجل طعامك لأمره في وقت، وتؤخره لأمره في وقت آخر، فتجري على مقتضي العبودية والطاعة.. فعلى هذا يقتات قلبك وبه يصلح، فبهذا حياة القلب ونعميه وسروره.. وبمقدار اقتيات القلب على أمر ربه تعالى ومرضاته يحيا ويصلح.

إن من أعظم النعم والمنن أن تفعل لأجله وتترك لأجله؛ فالغالب يعمل لرغبة وشهوة وهوى، وأما من اصطفاه الله تعالى «فيضنّ» به تعالى أن يتركه لنفسه وأن يقضي عمره لرغبات فانية ومصالح محدودة مضطربة ومتناقضة وقصيرة الأمد ومريرة المذاق وسيئة العاقبة..

فيصطفيه الله تعالى ليحيا بأمر ربه ويعمل له وبه، كما قال البعض «إياك أريد بما تريد» وخير الأمور أن تكون حياة العبد لله تعالى، وبه، وبما يريد تعالى.

إن الصيام دربة على الانخلاع من مقتضى النفوس إلى مقتضى أمر الرب تعالى، إنها مران على التجرد والعبودية لتتضاءل الشهوة ويتقزم سلطان النفس، لتكون مطواعة لله تعالى، منخلعة من الحظوظ، منكسرة لله تعالى، فتزكو..

وعند انكسار النفوس لله تعالى تأتيها الخلع والعطايا من رب العالمين، وتأتي وفود الخير.. فهنيئا لمن امتثل أمر ربه وأخّر هواه وطوّع لله نفسه.. فالحمد لله.

٣٧

أعظم النعم في الشرائع دلالتها على رضا الله تعالى ومحبته

ليس الشأن في أن تتعب أو تنصب، أو تجوع أو تظمأ، لكن أعظم النعم، والشأن كل الشأن، أن ينال عملك شرف الوصول إلى الله تعالى، وهو الشرف المتضمَن في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ [الحج: ٣٧].

فرهبان النصارى، والبوذيون، والهنادكة، وأتباع كونفوشيوس، والدلايلاما في التبت، والوثنيون في أفريقيا، وغيرهم كثير، يتعبون وينصبون أكثر منك، وهم يظمؤون ويجوعون أكثر منك، ويحْرِمون أنفسهم من متع الدنيا وطيباتها ويحرّمونها على أنفسهم أكثر مما تترك أنت من الخبائث المحرمة، بكثير.

يعيشون على وهْمٍ ويخترعون تعبدات، وبمضي الزمن يقدَّس واضعوها ومخترعوها، ثم يأتي ملايين ممن هم كالأنعام لا سمع يعقلون به ولا بصر ولا أفئدة تعي، يتلقون بلا عقل، فيتتابعون كالفراش في النار.

إن من أعظم نعم الله تعالى علينا أننا لم نخترع شريعة ولا عبادة، بل علمنا أدلة صحة الرسالة، وهي متواترة متكاثرة، تتزاحم على النفس كثرتها، فاستيقنّا صحة الرسالة وعلمنا أنها متضمنة لما يرضي الله تعالى..

فأفعال الصلاة وأقوالها أنزلها الله تعالى وضمنها رضاه، فاستيقنا وصول أقوالها وأفعالها إليه تعالى إن استوفينا شروطها الشرعية.

وترك الطعام والشراب نهار رمضان أمر بوحي استيقنا رضا الله تعالى عنه وعلمنا وصول العمل لله.. وهكذا مناسك الحج تعلمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوحي فعلم أن أفعاله وأقواله وزمنه ومكانه هو محل رضوان الله تعالى يقينا، واستيقنا وصوله إليه تعالى، وكذا الجهاد والإنفاق..

وكذا كل الشرائع وأحكامها، عبادة كانت أو معاملة، قولا أو فعلا أو اعتقادا أو معانٍ في القلوب.

ولهذا حرمت البدع لما تتضمن من المفاسد الكثيرة، وأعظمها أنها ضلال عظيم حيث يدعي مخترعها رضا الله تعالى عنها من قول أو عمل أو اعتقاد، وهذا المدعي كاذب على الله مفترٍ عليه، ولن يقبل عمل من مفترٍ، فمن تلقاها منه لم يجد شيئا عند لقاء الله تعالى بعد تعبه وكدّه وفناء عمره فيما لا ينفع..

لهذا كانت الشرائع والتكاليف من الله تعالى أعظم النعم.. ولهذا ختم تعالى آية الصيام ببيان أن تفصيل الشرائع من أجلّ النعم التي تستوجب الشكر.. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٥]، وذكر شكره على شرعة الوضوء، فقال تعالى في خاتمتها ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المَائـِدَة: ٦]، وقال في خاتمة آية كفارة حنث اليمين ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المَائـِدَة: ٨٩] وقال في سياق آيات أحكام الطلاق والعدة ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٣١]..

ولهذا فرح مؤمنوا أهل الكتاب بما أنزل تعالى وبشرائعه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرَّعْد: ٣٦] وأمر تعالى بالفرح بما أنزل ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونُس: ٥٨]، يعني الإيمان والقرآن.. وقال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤] فالحمد لله على نعمه..

إن عظمة الشرائع أنها تدل قطعا على ما يرضي رب العالمين تعالى من قول وعمل واعتقاد وموقف، وتصل العبيد بالله تعالى، فتمنع العبد أن يقضي عمره ضالا يظن نفسه مهتديا، وتمنعه من ثم من حياة عابثة أو عمل ضائع يجعله الله يوم القيامة هباء منثورا..

إن تلك الوصلة بالله تعالى، ويقين الطريق إليه، نعمة ما بعدها نعمة، وهذه خاصة شرائع الرسل.. فقبل أن تتعب؛ انظر.. هل فيما تقدم عليه رضوان الله يقينا أم لا؟

فمن حملَنا على شريعة غير شريعة الله تعالى فقد أجرم، ومن ابتدع بدعا لنعمل عليها فقد خدعنا، ومن أوصل إلينا شرائع الله تعالى ودعانا إليها وأقامنا عليها فقد نصح، ولهذا قال تعالى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾ [الصَّافَّات: ١٨١] وذلك لسلامة وصحة ما بلّغوه عن ربهم.. فسلام الله عليهم..

فاللهم اجعلنا ممن طلب رضاك فأدركه، ولا تجعلنا ممن تعب وكد ولم يرضك.

الاستغفار والتوبة خير صاحب ومستصحب في أول الطريق وخلاله وآخره

من أنفع ما يستصحبه المسلم في بداية رمضان وخلاله ونهايته، وما يستصحبه في أول عمره وخلاله وآخره، ومن أعظم نعم الله تعالى على العبد أن يتوب إلى ربه تعالى، ويبدأ بالتوبة، ويكرر التوبة ويصبح أوابا منيبا رجاعا إلى الله تعالى..

لا يخلو العبد من الذنوب، ولا من عيوب النفوس، وقبح الفِعال، والتقصير في الحقوق، وتعدي الحدود، والتفريط في الواجبات، وعدم إحصاء ما يجب أن يقوم به، وعدم إكمال وإتمام ما وجب عليه، ونسيان، وغفلة، وحظ نفس ووسوسة شيطان، وغضب لنفس، وسخط وأحقاد، وعيوب وشهوة تعمي، وقلق في غير محله، وتحقير كبير وتعظيم حقير.. إنها النفس.

وقد علّم النبي ﷺ بعض أصحابه أن يدعو بكلمتين ينفعانه فأمره أن يقول «**اللهم ألهِمني رُشْدي وقِني شر نفسي**»، وعلّم النبي ﷺ الصديق الأكبر، أبا بكر رضي الله عنه، أن يدعو إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه بهذا الدعاء «**اللهم عالمَ الغيب والشَّهادة، فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجُرّه إلى مسلم**» [ابوداوود

والترمذي]، وكان أبو بكر يقول «وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان»، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وذلك لأن الشيطان يوسوس والنفس تقبل ما يلقيه فيها من الوسوسة».

وقد قال تعالى ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النِّسَاء: ٧٩] يعني بسببك، أما الخير فالله تعالى سببه ومبدؤه ومتمُه تعالى.

فمن خذله الله تعالى ووكله إلى نفسه كان الشر، وكانت الذنوب.

يقول ابن تيمية رحمه الله «والذنوب هي أصل الشرور في العالم»، ومبدأ الذنوب هي النفوس، فمن وقي شر نفسه وقي الشر كله، فإن الذنوب تهلك وتمنع الرزق والخير والهدى، وتوجب الخذلان والهزيمة والفقر، بل وهلاك الأمم، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأَنْعَام: ٦].

كما أن الذنوب هي التي تحول بين القلب وربه.

ولذا كانت التوبة خير صاحب وخير مستصحب إلى لقاء الله تعالى.. فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعُدّ له أصحابه في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة يقول «**رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الغفور**»، وكان جزاء أصحاب محمد مع نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد غزوة العسرة ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ..﴾ [التَّوْبَة: ١١٧]، وكانت خاتمة حياة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ

أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النَّصر: ١-٣] بل وكانت خاتمة الخلق وغاية المؤمنين التوبة ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ۝٧٣﴾ [الأَحزَاب: ٧٢-٧٣].

الذنوب توجب خللا في العلم واليقين، وتوجب خللا في الإرادة، ولهذا بيان تالٍ إن شاء الله..

لطلب المغفرة طريق

ليطلب الصائم ـ والسائر إلى ربه ـ المغفرة والتوبة، وليستصحبها يجب أن يعرف سياق هذه المغفرة في طبيعة هذا الدين الرباني..

إن سياق طلب المغفرة من الله تعالى والتوبة إليه ليس سياق تعبد في محراب منعزلا! إنه سياق مواجهة وحركة ضد الباطل لإقرار الحق وإعلائه وتحمل الصعاب والمشاق في سبيل ذلك.

يطلب المؤمنون المغفرة في مثل هذا السياق ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦].

فمع طلب الرحمة والمغفرة، تضرعوا إلى الله تعالى بولايتهم له، وختموا دعاءهم بطلب النصر على الكافرين، مع أنه لم يُذكر في السياق كفار ولا جهاد في موقف معين، لكن مع طلب المغفرة والرحمة والعفو كان إعلان محبتهم له تعالى فطلبوا النصر إعلانا أنهم في جهاد مستمر لا ينقطع في محْو مسخوطات المحبوب وإقرار محابه تعالى، وهذا من لوازم ولايتهم له ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾، هذا الجهاد هو من طبيعة هذا الدين ولوازمه، وهم يحتاجون فيه إلى النصر، وهو لا يتحقق إلا بالرحمة والمغفرة والعفو، فإنه لو وقع خذلان وهزيمة فيكون منبعها وسببها

الذنوب المانعة من النصر.. هذا سياق دعاء أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن تصور محرابا بلا مواجهة للباطل فليس هذا هو شأن دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي موطن آخر يبين تعالى كيف تُرجى رحمته ومغفرته؛ فيقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢١٨﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٨]، فحدد تعالى سبيل رجاء رحمته، وأخبر أن أولئك المهاجرين والمجاهدين هم الذين ينتظرونها ويسعون إليها، وأخبر أن الرحمة تنتظرهم، كما في خاتمة الآية، فمن سلك غير هذا السبيل وأراد إسلاما آخر وطبيعة أخرى فهل يجد ما أراد؟ ليس للعبد أن يشترط على ربه أو يحدد الطريق، بل لله تعالى.

في موطن ثالث يطلب المؤمنون من ربهم تعالى المغفرة وتكفير السيئات وإنجاز ما وعدهم على ألسنة رسله وعلى متابعتهم لهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عِمرَان: ١٩٣-١٩٤].. هذا دعاؤهم، فانظر سياق المغفرة الذي يحدده لهم ربهم سبحانه..

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عِمرَان: ١٩٥].

فإنهم لما تقربوا إلى الله تعالى باستجابتهم لداعي الله تعالى، وتضرعوا لربهم تعالى أن يغفر لهم الذنوب ويكفر عنهم السيئات، اشترط الله تعالى لاستجابة دعائهم «الجهاد، والهجرة، والصبر على ما يصيبهم في هذا السبيل».

إن هذه الشروط ليست ظرفا آنيا أو ملابسات خاصة بل هي طبيعة هذا الدين وطبيعة حركته في الأرض ليحمل الخير للناس، ويزيح الشر المدجج والمتترس والمحتمي بقوة مادية ليمنعهم من رؤية الخير.

وعندما طلب السحرة الذين آمنوا مع موسى المغفرة طلبوها بالصبر على القتل والصلب، ورأوا أن هذا أمام ما طلبوا من غفران جرائمهم قليل!! وهذا هو موقفهم: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٩–٥١].

هل تريد المزيد؟ اقرأ كتاب الله تعالى.. سترى هذا المعنى مطردا ومتواترا.

إن التضحية من أجل هذا الدين وصراع الباطل ومجاهدته ومغالبته ليس ظرفا آنيا.. إنه طبيعة دين، وطبيعة الطريق، وسبيل نيل ما عند الله تعالى.

فمن تصور دينا لا ينصره ولا يضحي من أجله، فليس هو هذا الدين، ومن تصور طريقا ليس فيه أن يبذل لله تعالى، ثقة فيه وتوكلا عليه وإيثارا له ولمرضاته ولما عنده، فليس هذا ما جاء به القرآن.. ومن أراد الاستيقان فليقرأ القرآن مرة ثانية.. ليس تراتيل ولا أمانيّ بل ليفقه ما جاء به وليعيَ ما خاطبه ربه..

إن للمغفرة والرحمة وسكنى الغرف العالية في جنات عدن عند رب العالمين، لهذا سبيل، الله تعالى هو الذي يحددها ويحدد معالمها، وليس العبيد.

فاللهم انصر المجاهدين، والصامدين، والمرابطين، وشرفاء الميادين، ومقاومي الباطل، ورافضي الظلم، والساعين لنصرة دينك في كل مكان، واجعلنا منهم.

الاستغفار والتوبة تمنع الذنوب من تبديل الفطرة وتحويرها وطمس نورها

إن نكتة التوبة هي أنها تمنع التبديل والتغيير والتحوير، وذلك أن الله تعالى فطر عباده على الحنيفية «إني خلقت عبادي كلهم حنفاء»، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ومعنى الحنيفية هي «معرفة الله تعالى ومحبته وتوحيده»، فهذا موجود في كل فطرة.

وأما التغيير والتبديل والتحوير فجاء من الشياطين، قال ﷺ: «**فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم**»، والنفس تقبل هذا من الشياطين وهذا خطؤها وضعفها ونقصها النابع من ظلم النفوس وجهلها.

والحنيفية تشمل جانبين:

الأول: المعرفة والتصديق بالله تعالى والإقرار به.

الثاني: إرادة الله تعالى وقصده ومحبته وتوحيده.

والذنوب والانحرافات البشرية هي التي تطمس نور الفطرة ومعرفتها، كما تنحرف بإرادتها لتريد غير الله تعالى وتسعى إلى سواه.

ولو تتابع هذا فقد يضعف التصديق أو تضعف الإرادة والمحبة، ولو تتابع

أكثر لوصل إلى الشك والتكذيب والجحود، أو وصل إلى التعلق بغير الله تعالى محبةً وإرادةً.

أول الخطر هو الذنب وتتابعه إذا لم يعد منه صاحبه سريعا.

أما التوبة فتزيل عوائق وغواشي الذنوب عن القلب، فتعمل الفطرة عملها وتصحّ، ويجد العبد في نفسه وفطرته من المعرفة ومن إرادة الله تعالى ما كان غافلا عنه، ووجدها تعرف الله وتطلبه في يسر ودون كلفة، وما كان يظنه من العمل الصالح على غير هواه، إذا به يجده مشتهى قلبه ونعيم روحه، وبه تقر عينه، وإليه ترتاح نفسه.

فإذا عملت الفطرة بمقتضى معرفتها وطلبها لله تعالى، وعملت بانطلاق بعد حجب الذنوب وإزالة عوائقها، ثم وجدت نور الوحي المبارك، صدّقته، لأنها تجد في نفسها تصديقه مجملا، وتجد الوحي جاء بما تصدق به وتعرفه، لكن جاء على وجه مفصّل، فيأتي نور الوحي على نور الفطرة، ولهذا قال تعالى ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور: ٣٥]، يقول ابن كثير «مثل نور المؤمن الذي في قلبه، كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هُود: ١٧]، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرِق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف» [تفسير ابن كثير، سورة النور].

وعندما تعمل الفطرة، تجد الوحي مصدّقا ودافعا وهاديا، وبهذا يتم هداها، فالرسل جاءت لتكميل الفطرة وتقريرها.

فإذا وجدت في نفسك ضعفا في تصديق أو خللا في إرادة فامنع تلك القاذورات والنجاسات من الذنوب فقد أمرضتها، فإذا رفعت عنها العلل والأمراض انطلقت إلى ربها تعالى لا تشبع من كلامه، فإذا سمعَت كلامه عرفته وتلقته، قال عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «لو صفت قلوبنا ما شبعت من كلام الله».

وإذا صحّت فلن ترضى بغير الله تعالى مرادا لِذاته، ولن تعطي محبتها لسواه، ولن تقر عينها إلا به، ولن تسعى إلا إليه ولن ترتاح إلا بالوصول إليه..

لماذا نستحمق فنضع غواشي ونجاسات الذنوب وقاذورات المعاصي على محل معرفة الله وإرادته، ومحل نظر الرب تعالى، وهو القلب؟ لماذا نغشي على فطرتنا غواشي فتنسى ما فيها من المعرفة ونضعف أو نفسد ما فيها من الإرادة..؟ أرأيت؟ أنت أحوج إلى التوبة من الطعام والشراب، فبالطعام والشراب يصحّ جسدك، وبالتوبة يصح قلبك وتستقيم فطرتك وتعمل أجهزتك المعطلة فتنطلق إلى الله.. ألا هلمّ.

ترك الذنوب لطلب اليقين

خطر الذنوب أنها تضع غواشي على المعرفة، فإذا ما في القلوب من المعرفة المفطورة عليها، والمبنية على الميثاق العظيم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٢]، إذا بها تغيب عن العبد.

والغفلة والنسيان هي لوازم للنفس البشرية، ومن هنا فقد يأتي على القلب غين، وهو ما يصيب المقربين، ولهذا يستغفرون، وقال أكرم الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» [صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٥)].

وقد يصيب القلب غيم، وهو ما يصيب أصحاب اليمين المقتصدين.

وقد يقدح في القلب سهم الذنوب وجراحاته، وعندئذ فاعلم أن «الذنوب جراحات، ورُب جرح وقع في مقتل» [ابن القيم رحمه الله، الفوائد].

وقد تُمد القلب مادة الإيمان بالطاعة ومادة النفاق بالمعصية، كما قال حذيفة رضي الله عنه، وحكمُه أنه لأيهما غلب.

وتوالي الذنوب على القلب يضعف علم القلب، سواء المعرفة المفطور عليها، أو العلم المكتسب بالوحي، فيعود كما قال ابن تيمية «منكرا لما كان به عارفا،

وجاهلا بما كان به عالما»، قال ابن مسعود: «إني لأجد العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه، ثم تلا ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المَائـِدَة: ١٣]».

وقد يجد العبد من الضعف ما يصبح الإيمان بالغيب، رغم وجوده، كأنه استدعاء لشيء غائب وبعيد، يتذكره صاحبه بصعوبة وضعف، فلا يتحقق للعبد من الإيمان بالغيب ما يصل به إلى الواجب وهو «التصور التام» كما يقول شيخ الإسلام، و«التصور التام» لما أخبر به تعالى يصبح به الغيب الذي وعد الله تعالى حاضرا للعبد فيعطي موجبه من العمل على وفقه طلبا وهربا، ورغبا ورهبا.

ما الفارق بينك وبين حارثة الذي نوّر الله قلبه فأصبح وكأن عرش ربه بارز له، وكأنه يرى أهل الجنة يتنعمون وأهل الجنة فيها يتضاغون، وكأن الموت يطلبه وكأنه واقف على الصراط، ومن ثم أظمأ نهاره وأحيا ليله.. إنه اليقين والتصور التام والمعايشة.

وكلمة «كأن» هنا لا تعني التخيل، بل هي حقائق أكثر صحة ووجودا وحقيقة مما نعيشه في دنيانا..

قال له صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إنك امرؤ نور الله قلبه، عرفتَ فالْزم**»، ثم لم يلبث أن استشهد، ثم سألت أمه عنه في الجنة فتصبر أم في النار فتبكي؟ فقال لها صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك يا أم حارثة، أوَجنة هي؟! إنها جنان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى!**».

ما الفارق بيننا وبين حارثة إلا أن حارثة أزال عوائق الذنوب فتجلت الفطرة عما فيها من المعرفة والتصديق، ثم صدّق هذا نورُ الوحي المبارك، فبلغ للصديقية فعاش أياما مباركة ومات ميتة كريمة ونال منازل العلا.

تسمع فلانا يقرأ الآية طوال الليل، وآخر لا يفارق ذكر الموت قلبه ساعة، وآخر لا يصل به طول الأمل أن يصلي الصلاة التالية، وآخر يمرض في بيته لسماعه آية، وآخر يغشى عليه، وآخر يموت لهول آية، وصحابي يشهق شهقة تخرج فيها روحه لما سمع وصف الجنة في سورة الإنسان.. ما الفارق؟ ولماذا عايشوا الغيب أكثر من الحاضر؟ إنهم امتنعوا عما يفسد الفطرة ويحوّرها ويغشّى عليها، وصدّق هذا نور الوحي ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] فكان اليقين والتصديق والمعايشة للحقائق الكبرى، وهي نعمة ما بعدها نعمة؛ فنسأل الله منّته ووقايتنا شرور أنفسنا.

قيمة أصحاب اليقين في الأمم ودورهم ولحظات مفصلية في التاريخ

ثمة أشخاص يوزعون اليقين على الأمة، هم عيون الأمة وملح الناس، بهم يثبت الآلاف والملايين، ويظهر الحق وتظهر أدلته، لا يرتابون ولا تزيغ عيونهم رغم عظم الفتن والشبه واضطراب الموازين..

لا تعصف بهم رغبة ولا رهبة ولا يرتابون في قيم هذا الدين وتصوراته، بل تزيدهم المحن رؤية وشفافية، كما يقول أحدهم وهو يواجه الدجال «**مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً**» [صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٦)]، يفيء الناس إليهم كالظلال في الهجير والمَعْلم البارز عند التيه وضلال الطريق، تُرمَق أفعالهم وتُسمع أقوالهم وتُقتفى آثارهم وينحاز الناس إلى مواقفهم.. إنه اليقين.

تريد مثالا لهم ولدورهم؟ إنهم على مدار التاريخ..

عندما خاف البعض من الإقدام وقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٤٩] قال أصحاب اليقين الخاص المبني على نور الفطرة ونور الوحي الموصوفون بوصف ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٤٩] فلما تردد البعض قالوا ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ..﴾ [البَقَرَةِ: ٢٤٩-٢٥١].

رغب البعض في الدنيا، خفةً وعجلةً، لما رأوا قارون في زينته، وخُدعوا بمظاهره، ولم يلتفتوا إلى بقاء هذا أو زواله، وعندها لم تزغ أبصار ولا يقين قوم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القَصَص: ٨٠] أدركوا هذا مبكرا، وأما الباقون فلم يدركوا إلا بعد هلاك قارون فقالوا ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾ [القَصَص: ٨٢] أدركوا بتعجب بعد الهلاك، ولو طال بأهل الدنيا النعيم فقد يفتن أمثال هؤلاء، لكن اليقين في نفوس قوم رأوا به الأمور من مباديها فعرفوا مراميها، قال عامر بن عبد قيس: «لو رفع الغطاء ما ازددت يقينا».

إنهم من آمنوا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهاجروا وغيّروا مجرى التاريخ، لم يزيغوا أمام شبهة عرضت بل هم أزالوا الغشاوة عن العيون والقلوب بإذن ربهم تعالى.. كان يسير أحدهم ويثبت ويتحرك بهذا الدين، فلما آمن الناس بعدهم، بسببهم وعلى دربهم، قال عليه الصلاة والسلام للكرام الذين آمنوا بعد، كخالد بن الوليد، «**يا خالد دَعْ عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أُحدٌ ذَهَباً ثم أنفقته في سبيل الله تعالى ما أدركت غدوة أحدهم ولا روحته**».

كيف تكتسب هذا اليقين؟ إنها نفس الخطة ونفس المأخذ.. تب واستغفر وارفع حُجُب الذنوب وتخلص من قذاراتها وتطهر من نجاساتها ليصل إلى قلبك نور الوحي فتجد في نفسك من المعرفة اليقين، وتجد من الوحي يقينا مصدقا حتى تتراحم على قلبك أدلة الحق ويقينه، فتعيش ما تصدّق وتحيا بما تؤمن وتذوق الغيب وأنت حي.. وعندها ما أفلحك.

وفي فتن اليوم مثال واختبار..

الذنوب نجاسات.. وقد تذهب بأصل اليقين

تخاف من الذنوب أن تضعف اليقين؟ بل اخش منها ما هو أشد وأعظم وهو زوال اليقين وانتفاء التصديق..

فكم ممن يشك أو يكذب، لا لافتقاد الدليل بل لكثرة الذنوب، فهذا الذي تليت عليه آيات الله تعالى فقال في شأنها أنها خرافات القدماء واختراعاتهم ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقال الله تعالى له، ولهذا النمط البشري، قال له: ليس الأمر كما تزعم فليس القرآن أساطير الأولين، بل حُجبْتَ عن رؤيته؛ فقد تراكمت على قلبك الذنوب فحجبت عنك الخير وأفسدت ما فيك من الفطرة فكذبت بالحق وخسرت..

وتكذيبك له لا يعني انتفاءه، فالحق في مكانه يجده من طلبه، لكن الخلل في قلبك..

قال تعالى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المُطَفِّفِين: ١٣-١٤]، يقول ابن كثير «أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرَّيْن الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ والرين يعتري قلوبَ الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين» [تفسير ابن كثير، سورة المطففي].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾».

وانظر إلى ما قاله ابن القيم رحمه الله، وحكاه عن شيخ الإسلام، أن كتاب الله تعالى لا يمسه في السماء إلا المطهرون، وهم الملائكة، فلا يناله شيطان، وهذا في مسّ الكتاب نفسه، وجعل تعالى حكم مس المؤمن للكتاب على طهارة، إما وجوبا وإما ندبا، من باب الإشارة أو قياس الأوْلى، فيقول رحمه الله فإن كان هذا في مس الأيدي للمصاحف، فمن باب أولى أنه لا تمس معانيه الشريفة إلا القلب الطاهر من دنس الذنوب ونجاساتها.. ولهذا لا يشبع المطيعون من كلام الله، ولا يشبع منه العلماء، فتتفتح لهم معانيه، ويقرأ الآية فيفهمها كما لو أنه لم يسمعها من قبل، ويفهم منها ما لم يكن يعلم، رغم أنه يقرؤها مئات المرات..

بل ويباشر القلب من اليقين ورؤية الحق، فيراه حقائق بين يديه ويذوق هذه الحقائق ويراها بقلبه، لتصبح وحدها دليلا لا يستطيع دفعه عن قلبه، فلا يطلب الدليل من خارج، بل يجد الدليل في قلبه حقائقَ يعيشها ويذوقها ويجد علمها في نفسه ضروريا واضطراريا، وهو من أعلى أنواع العلوم واليقين..

فيا لخسارة من يخسر هذا الخير بعوائق الذنوب وأدرانها..

أرأيت؟ إنها التوبة، فورا وبلا مهل، ودوما وكل يوم، لا تدع من الذنوب ما يعلق بقلبك، فإنه محل شريف، خلق لأشرف معرفة وعلم وأشرف قصد ومحبة، فلا تنجسه بل طهره ليستقبل الهدى، ولا تضعفه عن السير إلى ربه..

كما يجب أن تحذر أن الذنوب ليست في الشأن الخاص فقط، بل الذنوب المتعلقة بالشأن العام والتقصير في خدمة الأمة، والتأثير السلبي على الغير،

وخذلان الحق في أي موطن وتعليـم الغير سوءا، والأثر السيء لكلمـة أو موقف أو عمل، إيجابا أو سلبا..

تجب التوبة من ذنب تذكره أو تنساه، تقرّ به أو تجادل في شأنه أو تنكره، جادا أو هازلا، عالما أو جاهلا، استخفيت به أو أعلنته..

قـد يكـون ذنبـا في المسـجد في تنافـس لـغير الله، أو مجادلـة ظالمة أو اسـتعلاء أو رياء أو جحدا لحق، دق أو جلّ..

قد يكون وأنت تهتف لنصرة الحق فيدخل في القلب أن يكون لنفسك نصيب، فردا أو طائفة أو جماعة أو شيخا أو لافتة!

قـد يكـون الذنـب تقصيرا أو تركا لمأمور أو فعلا لمحظـور.. وقد يكون مبالغة في أمر لم تؤمر به على هذا الوجه.. قد يكون غفلة أو نسـيانا أو سـوء ترتيب اهتمام، قـد تتزاحـم الحقـوق والواجبـات فتقصّـر وتنشـغل بأمـر عـن أمـر.. أرأيـت.. مـا أحوجني وما أحوجك!

ثم لو اسـتوفيت ـ وهذا لا يكون ـ لكن تنزّلا؛ فحق الله تعالى أعظم أن يسـتوفيه بشـر على وجه المقابلة، فالتقصير لازم والتوبة لازمة..

اليـقين أسـاس العمـل، وإن اسـتقر التصـور التـام انطلق العمـل بلا مشـقة بل انطلق لازما للتصـور التام الذي يـملأ القلب فيعيش الغيب الذي يفرض نفسـه على القلب، وهذه علامة الصلاح.. يقول الأسـتاذ سـيد قطب رحمه الله أن ميزة أصحاب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إنهم كانوا يعيشون في الآخرة بمشاعرهم ويقينهم وتحركهم أكثر مما يعيشون في الدنيا..

أتم الله علينا وعليك هداه الكريم..

الاستغفار والتوبة تمنع الغواية كما تمنع الضلال

كما تُضعِف الذنوب العلم والتصديق أو تنفيه، فإنها قد تضعف إرادات القلب ومحبته لله تعالى أو تنفيها، فالقلب خُلق مفطورا على محبة الله وطلبه وعبادته، وإنما أيضا تغشى غواشي الذنوب على هذه الإرادة فتضعُف، أو تنتفي فينحرف بها العبد إلى غيره تعالى..

كم من قلب لا يتم رشده بل يغوى عن علم وبينة، يُعرَض عليه الحق فيكرهه ويأباه ويدفعه، لا لافتقاد دليل بل لأنه يخالف هواه ويراه مانعا له عن نيل شهواته ومطالبه المنحرفة، قال تعالى في شأن هؤلاء ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٦]، وهؤلاء بخلاف من أتمّ الله تعالى لهم رشدهم وقال في شأنهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحُجُرَات: ٧–٨].

أن ترى الحق حقا خير، لكن لا تتم النعمة إلا باتباعه، واتباعُه لا يتم إلا بحبه وإرادته..

وكذلك أن ترى الباطل باطلا خير، لكن لا تتم النعمة إلا باجتنابه، ولا يتم اجتنابه إلا بأن تنفر منه وتكرهه.

وقد تسبب الذنوب خللا آخر وهو تعطل الإرادة بالإعراض وعدم الاحتفال بأمر الدين ابتداء، ولا شغل نفسه بصحة الرسالة أو بطلانها، فتعطل الإرادة عن الإهتمام بطلب الحق هو جريمة كانحراف الإرادة سواء. ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣] ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧–٦٨] ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥] ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].. وغير ذلك من الآيات. فكما قد يفتقد العبد الحق لنفرته منه قد يفتقده لإعراضه وعدم الاحتفال بشأنه..

إن إفساد الذنوب لإرادات القلوب قد يكون مضعفا، كما يحدث لغالب العصاة والمذنبين، وقد يكون مهلكا، كما قال السلف «المعاصي بريد الكفر»، والهلكة إما برفض القلب للحق والنفرة منه لمخالفة الهوى، أو إعراضه عنه وانشغاله بغيره فيعظّم ما فيه من أمر الدنيا ويحتقر أمر «الدين» عموما فلا يحفل بصدق الرسول ولا بما معه من الحق.

فالتوبة والاستغفار تعيد القلب إلى فطرته، فإذا رفعت تلك الحجب والغواشي والأدران المانعة وجد العبد في نفسه من حب ربه تعالى وإرادته وإيثاره على ما سواه ما لم يكن يشعر به، رغم أنه مفطور عليه..

ثم يأتي نور الوحي مؤكدا لتلك الإرادة ومفصِلا لها، كما أكد المعرفة وفصّلها، فيكون في القلب البينة، علما وعملا، ثم يأتي شاهد الوحي مؤكِدا ومفصِلا ومقررا، وهذا معنى قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]. ومعنى «يَتْلُوهُ» يعني يتبعه. فتتم للعبد نعمة ربه تعالى..

إذا افتقد العبد للعلم أو نسيه فكذب بالحق أو شك فيه ضل، وإذا انحرفت إرادته عن الحق غوى، والعلم النافع يمنع الضلال، والعمل الصالح وإرادته يمنع الغواية.. وقد قال تعالى ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ [النَّجْم: ٢].

فما احتاج العبد إلى شيء حاجته إلى الانخلاع من المعاصي والتطهر منها وأن يغسل قلبه بتوبة ماحية، فتعمل فطرته ويستقبل الوحي مصدقا، ويتلقاه كالماء البارد على الظمأ..

ومن تمت له إرادته للحق كما تم له العلم والتصديق والتصور التام، فقد أوثر بخير كثير.. ومن كان أتم إرادة وأتم علما، كان أتم هداية.. ولهذا وصف النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خلفاءه الراشدين بقوله «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**» فالرشد في الإرادة والهداية في العلم..

ومثل هذا يقطع في لحظات وأيام ما يقطعه غيره في سنوات، ويأخذ في سيرة الأولين ويصحبهم، وقد يسبق مع السابقين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٤﴾ [الوَاقِعَة: ١٣-١٤]، وقد يوزع اليقين على إخوانه وأمته، قد يثبُت ويثبّت الله به أمة.. لا تدري، فقط اصدق الله يصْدقْك..

الصيام.. والحراك بهذا الدين

فريضة الصيام شعيرة من شعائر الإسلام، والإسلام حركة تحريرية للإنسان، كل من يؤمن بهذا الدين هو مكلف بالحركة به وإبلاغه للناس واستنقاذهم من الهلكة «**فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» [صحيح البخاري (٥/ ١٨)].

يُسأل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فيقول الصلاة على وقتها ثم يرتب بعدها بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله.

يقول عبد الله بن مسعود : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «**الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا**»، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي. [صحيح البخاري (١/ ١١٢)].

في حديث آخر يجعل الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وفي كتاب الله تعالى يربط التخلف عنه بالنفاق، ويجعل الإيمان والجهاد قرينين، ويأمر بالنصرة للدين ولو ارتد من ارتد، ويجعل الجهاد علامة على المحبة ويثني على عدم الالتفات إلى لوم اللائم في التضحية والنصرة لهذا الدين..

الإسلام حركة تحررية وتحريرية للناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. المسلم يحمل للناس الخير وأثمن ما في الوجود وأعزه، وهو الدلالة على الله تعالى.

الرهبنة والانسحاب بالإسلام من حركة الحياة هو أمر غريب على طبيعة دين الله تعالى، وعلى الصائمين.

والحركة بهذا الدين، حركة الصوام القوام، على محاور..

أولها حركة العلماء ببيان الحق.. ولا بد أن يكون ببيان الحق بأصوله وفروعه وتفصيلاته، فلا يكفي أن يقولوا للناس صلوا أو البسي الحجاب أو غضوا أبصاركم، فهذا مطلوب نعم لكنه يأتي ثانيا بعد معنى التوحيد بتحقيق العبودية لله تعالى بقبول شرعه ورفض ما سواه، وإفراد الله بحقه الخالص في التشريع وفي العبادة.

فيجب أن يطالَ العلم والتوجيه والدعوة الأفراد، كما يجب أن يوجه إلى تصحيح عمل المؤسسات التي ترسخ الإباحية والإلحاد والعلمنة للمجتمعات، كما يجب أن يوجه العلم والدعوة إلى الأنظمة العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة وتنحيه جانباً.

وللتوضيح.. فإنه فيجب أن تكون الدعوة وتوجيه العلماء ـ في عصرنا خاصة ـ على ثلاثة محاور:

الأول: ببيان أن قبول شرع الله ورفض ما سواه، برفض تبديل الشرائع، ورفض التشريع والتقنين من دونه وبغير إذنه وبغير أمره، أن هذا ركن من أركان التوحيد، لا يتم إسلام المرء بدونه؛ فيواجهون العلمانية والإباحية في أصولها ويواجهون أمر تبديل الشرائع، كما يواجهون حركة الإلحاد.

كما يواجهون أمر ولاء الكافرين، ومظاهرتهم على المسلمين أو التآمر معهم على المسلمين أو مواقف الخذلان للمسلمين، أو الدخول تحت ولاء العدو ورايته أو الانتظام في سلكه.

كما يواجهون به الانحراف في باب العبودية والنسك؛ فيواجهون مظاهر عبادة الأضرحة والمشاهد وما يرتبط بها من عقائد فاسدة وخزعبلات وفساد، وتواكل وسلبية، وأموال حرام وفواحش، وتواطؤ مع العدو.. إلى غيرذلك من أوجه الفساد.

الثاني: تصحيح انحراف المؤسسات فيواجهون تلك المؤسسات -حتى لو كانت في دول تزعم إقامتها للشريعة- تلك التي تنشر الإباحية أو تقوم على الربا أو تظلم الناس وتقهرهم أو تغير قيم المجتمع وتقوم بتغريبه وتربيته على غير منهج الله حتى يتشرب الناس قيما وأخلاقا مناقضة لهذا الدين؛ فلا بد من إصلاح الأمر ومواجهتها، والتوجيه لإقامة المؤسسات التي تقيم أمر الله وتقوم على وفقه وحكمه وقيمه، وتشارك في بناء الأمة، دينا ودنيا.

الثالث: التوجيه الفردي والبناء القيمي وبيان الأحكام للفرد، افعل ولا تفعل، أخلاقا وسلوكا فرديا وأسريا واجتماعيا، وبناء الشخصية الإيجابية والفاعلة، تحمل العقيدة الصحيحة وتترجمها في المواقف وتمتثل مقتضياتها وأحكامها، وامتثال قيمها وأخلاقها وسلوكها.. ولا يكتفون بالانتماء لشيخ أو مدرسة أو إطار أو جماعة أو لافتة، كما لا يركزون على قضايا من الدين دون قضايا.

أما إذا رأيتهم يقولون للناس غضوا والبَسي وافعل واترك، ثم يتركون المؤسسات التي نخاف منها على أبنائنا وعلى أجيالنا، ثم يتركون جريمة تبديل الشرائع وترسيخ حق التحليل والتحريم القانوني لغير الله تعالى، ويتركون تجريم ولاء الكافرين والتحذير منه، فاعلم أنهم دخلوا في قبض الأجرة أو الغفلة.. غفلة تشتبه كثيرا بالخيانة.

ومع حركة العلماء والدعاة فلا بد من المحور الآخر، وهو حركة المجتمع واستمرار حشوده وتكتلاته، واستمرار حراكه وتنوع أطروحاته وخياراته لرفض الظلم والحفاظ على الهوية وإقامة الدين.

لا بد من إيجابية وحركة المجتمع، حركة يمتلك فيها من القوة والبدائل ما يحمي بها دينه وحريته ويمنع الفساد والاستبداد والعلمانية والتبعية، ويحمي نفسه من تزييف الحقائق..

نزل القرآن في رمضان، وجعل تعالى صوم الشهر معللا بنزول القرآن فيه، وانتصر الإسلام يوم بدر يوم الفرقان، الذي نحن اليوم مسلمون بسببه، وهذا في رمضان، فالفرقان البياني والفرقان الميداني كلاهما في هذا الشهر الكريم..

فليعِ الصائم عن ربه كلامه وبيناته، وليعِ عن ربه أمره بإقامة الحق ومنازلة الباطل ومطاردته.. ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النِّسَاء: ١٠٤] «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»..

«إن هذا الدين حزمة واحدة»، العقائد مع الشعائر مع الشرائع.. القلب مع العمل مع الإيجابية، الجانب الفردي مع الجانب الجماعي والحراك العام، وإلا أثِم العبد عند لقاء الله تعالى.. فسؤاله تعالى سيكون عن حزمة هذا الدين وجملته، حيث جاء الإسلام ليخرج الإنسان نسيجا مختلفا وخلقا جديدا وأمة خيّرة صاحبة رسالة.. كنتم خير أمة أخرجت للناس، قال أبو هريرة «أنتم خير الناس للناس».. فنعْم العبد ونعم الأمة، ونعْم الإخراج ونعْم هذا الدين..

الأعمال بمتعلقها

الأعمال بمتعلقها.. والصائم يقصد الله تعالى، وأعظم ما في الصوم الكفّ عن أعظم شهوات النفوس وما به قوام الحياة إخلاصا لله تعالى، بحيث لا مراد للعبد إلا الله تعالى، ولو شاء لأفطر سرا، لكن الامتثال مع تحقيق الإخلاص مناط لخير كثير..

والعمل بمتعلقه؛ فمن عمل لأمر دنيوي فهو متعلق بمن هو تراب، أصلا ومآلا، والعمل يتبع غايته، فلا بد أن ينتهي إلى التراب ويفنى بفناء من تعلق به..

ومن عمل لله تعالى فقد تعلق عمله بمن هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء.. الله تعالى هو الأول في الأزل ولا بداية لأوليته، وكل بداية تصورها عقلك ووصل إليها فالله تعالى قبل ذلك، وهكذا أبدا، بما لا يصل عقل إلى حده، ولا يقف عنده.

وكل نهاية يتصورها عقلك فالله تعالى بعد ذلك، بلا نهاية ولا حد يقف عنده عقلك..

وكل عمل علّقته بالله تعالى وأردت به رضاه ومحبته، فقد تعلق عملك بهذا الخلود، فهو إذن عمل آمِن وقد وضعته في أكثر الخزائن أمناً وأعظمها بقاءً.

يتمتع أهل الجنة خلودا بلا نهاية رغم أن عملهم الصالح قد يستغرق موقفا واحدا أو لحظات قليلة كسحرة فرعون الذين آمنوا ثم استشهدوا في حينها، وكهذا الصحابي الذي سأل رسول الله ﷺ أُقاتل أم أُسلم؟ فقال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسلِم ثم قاتِل، فأسلم ثم قاتل فقُتل فدخل الجنة**»، قال أبو هريرة: دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة، عمل قليلا وأُجر كثيرا.

وهناك من يعمل سنوات مهما طالت فلن تقابل ما يقضيه في قبره أو في موقفه يوم القيامة.

ثم يجازى كل منهم خلدا في الجنة، كما قال ابن القيم رحمه الله كل لحظة في الدنيا تقابلها آلاف آلاف السنين في الآخرة..

ذلك أن العمل تعلق بالله تعالى فبقي ببقائه سبحانه وتعالى، فخلد العمل وبقي أثره أبدا.

الإخلاص مرتبط ومبني على اليقين، وانصراف القلب لله تعالى وإيثاره على ما سواه واحتقار ما دونه تعالى.

المخلص يتميز بالموضوعية وعدم البهرجة، في كل مجال تجده موضوعيا جادا، مؤخرا هواه وشخصه واعتبار ذاته ونفسه، متجردا لله ولعبادته، ولقضاياه التي يحملها..

لا يبيع دينه لكبْر أو هوى أو اعتبار شخص أو حزب أو نصيب دنيوي..

المخلص لا يدجّل ولا يقبل الدجل، لا يعيش بشعارات فارغة أو لافتات لا مضمون لها، لا تستطيع أن تحرف بوصلته ليترك قضاياه أو يخذل دينه وإخوته أو يعادي أهله وأمته..

المخلص لا يستعمل آلة الدين للدنيا ولا يلوي الآيات وينتقي من النصوص ما يخدم الباطل.

المخلص عين قلبه متعلقة برب العرش العظيم، وقصده وإرادته معلقة به سبحانه وتعالى..

قليل هم المخلصون وعُملة عزيزة لكن «طوبى للمخلصين، أولئك مصابيح الدجى، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء»، وفي لفظ «تتجلى» [شعب الإيمان (٩/ ١٧٧)].

ترتب من الأقدار ببركة أعمالهم الصاحة ما لم يكن في الحسبان ولا في مقدورهم.. إن تعليق العمل بالله تعالى يبارك به العمل ويبارك به أثره، قال ﷺ «**أخلص دينك يكفك العمل القليل**».. [المستدرك للحاكم، وشعب الإيمان للبيهقي].

فتح المخلصون من أصحاب محمد ﷺ الدنيا وفتحوا القلوب وبقي أثر عملهم إلى يوم القيامة تتوارثه الأجيال وتقوم على وفقه ممالك وأمم، تنظر القلوب أعمالهم لتقتفي أثرهم فكم من شهيد نال الشهادة تأسيا بهم، لأنهم استشهدوا، وكم من عالم ينهل من علومهم يتحرى كلماتهم وجملهم، بها يستدل ويعي، وإلى سيرتهم يدعو الخلق ويقتدي..

علّق عملك بالله فعملك أغلى من أن تعلقه بفانٍ فيضيع في التراب وتطويه الأيام نسيا منسيا..

القُـــرب
طلب الصديقين وغاية العُبّاد

الصائم ذاكر.. دائم الذكر، ذاكر القلب واللسان، يسبق قلبُه لسانه..

كيف يفتروقد انصرف قلبه وهمه عن شهوات الدنيا بل وعمّا يقيم أوْده من الطعام والشراب، كافّا حيث أُمر، طاعما حيث أُمر، أخر مطلب جسده عن مطلب روحه، تائبا مستغفرا، انطلقت فطرته بنور الوحي المبارك تطلب الله تعالى..

وفي الطريق.. فزاد روحه واقتياتها وحياتها ونعيمها بذكر ربه تعالى، مشغول به؛ لسان يلهج وقلب يخشع ويقوم بمعاني هذا الذكر، مشغول بالعرش، تطوف روحه، به بينما ينشغل الآخرون بحشوش الدنيا ومزابلها..

إن الروح، وهي مرتبطة بالجسد، لها رحلتها إلى السماء، تقترب من الله تعالى حال الذكر، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عندما رفع بعض أصحابه أصواتهم بالتسبيح والتهليل في سفرهم.. فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «**أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمًّا، وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**» [السنن الكبرى للنسائي (٧/ ١٣٢)، وأحمد].

وللروح قرب آخر حال السجود «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»..
[مسلم وأبو داود والترمذي].

وقرب آخر حال الدعاء ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].. ولذا فالوجه الأقوى في الآية هو عدم الوقف على قوله ﴿ قَرِيبٌ ﴾ وإن كان وجها صحيحا لأنه يدل على قرب عام، ولكن وصْل القراءة أقوى لأن فيه دلالة على القرب الخاص بحال الداعي وهو المقصود في الآية. [شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج٥].

وهذا القرب يقابله قرب من الله تعالى للعبد، والقاعدة عند أهل السنة "إن الله تعالى يقرب من خلقه كيف يشاء".

فالله تعالى يتنزل في ثلث الليل الأخير، وثلث الليل لا ينقطع من الأرض، والله تعالى يقرب لأهل كل ناحية يظللها الثلث الأخير كيف يشاء، والله تعالى على عرشه، يقرب من خلقه كيف يشاء.. والله تعالى أكبر من كل شيء.

يقرب تعالى عشية عرفة لأهل الموقف دون غيرهم، يقول شيخ الإسلام: فيجدوا من الرقة والخشوع ما لم يجدوه من الفجر إلى عشية عرفة، بعد العصر.

ويقرب تعالى من الساجد والذاكر والداعي قربا خاصا به، فتقترب روح العبد من ربها تعالى، ويقترب الله تعالى منها كيف يشاء.. وهو قرب خاص غير القرب العام من عموم الخلق الذي هو معنى ومقتضى اسمه «الباطن» فهذا عام، لكن هناك قرب آخر في بعض الأزمان كثلث الليل، وبعض الأمكنة في بعض الأزمان كعشية عرفة وهو قرب خاص بأهل الموقف، ثم ثمة قرب آخر لبعض الأشخاص؛ للعابد والداعي والذاكر..

عن القرْب تبحث؟ حُق لك، فعن هذا بحث الأولون والآخِرون، واشتاقت قلوب المحبين وكادت أوصالهم أن تتقطع من أجله، ومات بعضهم من شدة

الشوق والوجد.. أترى عبارة تحيط بهذا المشهد؟! يا واهم كيف يوصف قرب كهذا؟ وأي كلمة تعبر عن حب وشوق ما له مثيل، يا واهم.. هذا شيء يُجرَب ويُذاق، هذا يُبحث عنه ويُنفق العمر كله مهرا صغيرا صغيرا، وقليلا قليلا، ثمنا لما ليس له ثمن يقابله، ولم ينله عبد إلا من محض الفضل، فضل فوق العبارة، لا يصدق العبد نفسه أن ذاقه وفتحت له فيه روزنة وكوّة..

أترى قلبا وروحا «لمحت» فضلا عن أن تكون «ذاقت» هذا القرب وهاتيك المحبة، أترى أن تذكر غيره؟ أو تفتر عن ذكره؟ أو يثوى في قلبه غير حبه؟ أو يُجمع قصده وهمه على غيره؟ أو يؤثر سواه؟ لو سألته هذا لصرخ فيك وعاتب: كيف تسأل هذا؟ يقول لك: وهل طابت الدنيا إلا بذكره وهل طابت الجنة إلا بقُرْبه؟

أصِف لك وتصف لي..! لكنه وصف لتلك المحبة وذلك القرب، لكن الشأن كل الشأن أن تذوق، ومن ذاق لزم، قال بعضهم:

ساكن في القلب يعمره ... لست أنساه فأذكره

لا يكف عن الذكر واللهج الدائم والبحث والقصد وجمع الهم، كلما تعطل لحظة صرخ: واخسارتي تعطلت عن المسير، فيم أنفقت تلك اللحظات وذلك العمر؟ ألغيره؟ ألمن دونه؟ فواحسرتي ويا ظلمي لنفسي ويا لهفي على مقصودي ومحبوبي..

يا صائم.. أتطلب القرب؟ حُق لك.. وهل أثمن منه؟ وهل أغلى وأعلى من ذلك القرب؟ فليرجع أهل الدنيا بدنياهم، وقد خلا وفاضهم؛ أخذوا الدون ورضوا بالحقير، أما أنت ففي سفر ما لهم به علم ولم يخطر لهم ببال ولم يذوقوا طعمه..

لكن السفر طويل نخشى فيه من القواطع والشواغل، ولذا فالتوكل والتضرع والتوقي والخوف زادٌ حتى الوصول..

سفر طويل لكن ما أحلاه وما أعلاه، يؤنس فيه الحبيب تعالى من يطلبه ويرسل إليه وفود الخير وبشارات الرضا وعلامات الاطمئنان.. تنسى فيذكرك، تعصي فيغفر لك ويسترك، تفتر فيدعوك لمواصلة المسير، يناديك من قرب ويتلقاك من بُعْد ويحملك بقوته..

يا مسافرا بلغنا الله وإياك الوصول..

ذِكر الله في كل حال بحسب ذلك الحال

الصائم ذاكر؛ فالذكر مقرون مع الصيام ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأَحْزَاب: ٣٥]..

وعندما تقرأ قول الله تعالى ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعْد: ٢٨] فاعلم أن ذِكر الله تعالى يكون في كل حال بحسب ذلك الحال، وبما يجب في ذلك الحال..

فذكره تعالى عقب الصلوات بالتسبيح هو ذِكر ذلك الحال، وكذا في وظائف اليوم والليلة، والصباح والمساء.

وذِكره تعالى في مناحي الحياة يتحقق بذكر حكمه تعالى الواجب في ذلك الحال لطاعته والقيام بما أمر تعالى، فهذا ذكر ذلك الحال، وعلى هذا فسر الإمام الطبري وغيره قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] يعني «فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب»، ثم ذكر أن ذِكره تعالى بالتسبيح عموما هو القول الثاني للآية..

فذكره تعالى وقت الضيق والكرب ووقت الشدة وتكالب العدو وتخاذل الصديق وشدة الأمر.. ذِكره تعالى في ذلك الوقت هو بذكر حكمته وقدرته وأنه قد جعل لكل شيء قدْرا، وأنه حكيم وأنه حميد؛ محمود على ما يفعل، وأنه قد جعل

مع العسر يسرا، وبعد العسر يسرا، وأنه رفع عن الأمة الإصر والأغلال وما لا طاقة لها به شرعا وقدرا ما قامت بأمره تعالى، وذِكر قربه ومعيته لأوليائه ودفعه عن المؤمنين، وأنه يثأر لأوليائه كما يثأر الليث الحرِب -يعني الغاضب- وأن أمره «كن فيكون» وأنه يختبر عباده ويمحصهم ليصلحهم لا ليعنتهم، وأنه يضحك إلى عباده وهم أزِلين [١] قنطين وقد قرب فرَجهم.. فما أدرانا؟.. إن للسماء خطوها غير الأرض، وإن المقادير ليست بيد العبيد..

عند النعم يُذكر تعالى بذكر حقه وذكر الدار الآخرة وأنها أبقى وأن حال الدنيا فانٍ، فيزهد وهو يملك، ويشتاق للآخرة والدنيا بين يديه، ويلتزم حكم الله تعالى فيما آتاه الله من أمر الدنيا..

قال يوسف عليه السلام عند تجمع الأهل والملك والدنيا كلها بين يديه، مع النبوة والرسالة، فيشتاق للآخرة ويدعو: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يُوسُف: ١٠١]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أن داوود وسليمان، عليهما السلام، من الأنبياء الأغنياء الملوك ومع ذلك فهما أزهد أهل زمانهما.. [مدارج الساكين، جـ٢، صـ١٥].

عند المعصية يذكر نهيه ووعيده وقدرته وسلطانه، فيرتدع العبد عن اقتراف ما يشتهي لمخالفته أمر مذكوره ومحبوبه تعالى.

عند مواجهة الإسلام مع عدوه يذكر أمر الله بالمواجهة ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ وبالجهاد وبالثبات والاعتصام بالله وطلب الشهادة والبحث عن الدور المطلوب منه في

---

(١) تضبط أزلين، أوآزلين، جاء في حاشية السندي: قوله: "آزلين"، بالمد: اسم فاعل - كذا ضبط - أي صائرين إلى الضيق والشدة.

موقعه والنصح للمسلمين وسد الثغرات وحفظ الأعراض والكف عن المعصية المسببة للهزيمة، وغيرذلك مما أمر تعالى.

وهكذا في أمر الوالدين، والزوجة والولد والجار والقريب والعدو والموافق والمخالف والمؤمن والكافر.. لله تعالى أمر وحُكم في كل حال لا تغني عنه طقطقة المسابح وتحريك الشفاه، بل الذكر هنا بذكر الحكم وامتثاله، ولو ذكر بالشفاه ولم يقم بأمره ما أغنى عنه، كمن يستغفر بلسانه وهو مقيم على المعصية فهذا أقرب إلى الاستخفاف، وإنما ذكره تعالى حينها بترك ما نهى عنه.

وفي كل حال يذكر الله تعالى فيذكر من صفاته وأسمائه، ويذكر من حكمه وأمره، ويذكر من أمر الآخرة، ما يرى الأمر كما وضعه الله تعالى ويتناوله كما أمر الله تعالى، راغبا فيما عنده، رضاه والجنة..

وأما الذكر باللسان ومعاني التسبيح والتحميد فإنها روضة ونعيم يرافق المؤمن من الدنيا ويستمر معه في الجنة فلا ينقطع، ولنبين بعض معانيها إن شاء الله..

معاني بعض الذِكر
وأثره في اليقين وكمال الإرادة

التسبيح والتحميد والتهليل باللسان المواطئ للقلب هو نعيم روح المؤمن، وهو من العبوديات المستصحبة من الدنيا إلى الجنة، وهي تدوم في الجنة لكنها تنقلب من تكليف فيه نعيم الروح إلى نعيم خالص يجري بلا كلفة لأنه أعلى من التنعم بالمخلوق في الجنة من مأكل ومشرب ومسكن ومنكح وملبس وغيرها.

والذكر باللسان من التسبيح والتحميد بيان لحال القلب مع ربه تعالى، ما بين النظر إلى ما تقتضيه صفات الجمال والإكرام والعطاء مما يوجب ويقتضي الحمد واللهج به، فيقول «الحمد لله»..

وما بين النظر إلى البهاء والعظمة والجلال مما يقتضي التنزيه عن كل سوء ينسبه كافر أو شيطان وما يراه العبد من صفات نقص نفسه وجهلها وظلمها، فيوجب الكمال لله وتنزيهه تعالى عن السوء، فيقول «سبحان الله».

ويجمع بينهما بالاقتران بـ «سبحان الله والحمد لله» أو «سبحان الله وبحمده» أو «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، مقصود من ذلك هذا الاقتران بين الحالين، والجمع بين مقتضياتهما فالأول يوجب الحب والثاني يوجب التعظيم والذل، والعبادة هي غاية الحب مع غاية الذل لله تعالى؛ فعليهما مدار تحقيق العبودية.

والعبد يذكر من تأليهه لله تعالى وإفراده بالألوهية ما ينفي كل حب في القلب إلا له وكل خوف إلا منه وكل رجاء إلا فيه وكل تعظيم إلا له وكل طاعة إلا لأمره الشرعي، وينفي مفردات العبودية كلها عن غيره تعالى؛ فيسلم قلبه لربه خاليا من مزاحمة الهوى ومن طاعة الغير ومن التعلق بسواه أو الحب لغيره أو التعظيم لمن دونه، وعلى هذا يقول «لا إله إلا الله» لتحقيق ذلك المعنى المحقِق لكمال التوحيد، وهو يحرق الذنوب بحسب قوة ما قام بقلب صاحبه من هذا التحقيق والتجريد، وهو يدفع العبد كذلك إلى تكميل الطاعة.

والتكبير لله تعالى يصغر به ما سواه، نظرا وتعظيما، وبهذا يقول العبد «الله أكبر»..

والحول والقوة لله يقتضي التبري من حول غيره وحول النفس وقوتها، وهذا معنى الافتقار وهو يوجب عبوديات عظيمة منها التوكل، والمتوكل محمول بقوة ربه تعالى، فيلهج «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وهي كنز من الجنة..

وهكذا أمر الله تعالى في الذكر.

اقرأ ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعد: ٢٨] وانظر إلى صفات ربك وأفعاله وحكمته ورحمته وقدرته وامتلاكه أمر الدارين.. ستجد الكثير فيطمئن قلبك.. فذِكره تعالى في كل حال هو بحسب ذلك الحال.

وبدوام الذكر ولزومه تتنزل الملائكة على قلب العبد وتلزمه وتبتعد الشياطين، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤﴾ [النَّاس: ٤]، قَالَ: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ» [مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٣٥)].

وأما عند لزوم الذكر فإن الملائكة تتنزل على قلب العبد، والملائكة تتنزل بالتصديق وتقويته وزيادته، وبإرادة الخير وتقويته، وبهذا يزداد اليقين وتزداد إرادة

الخير، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أنه قال: إِنَّ لِلْمَلِكِ لَمَّةً، وَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً، فَلَمَّةُ الْمَلِكِ إِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَهَا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَهَا فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ. [الزهد لأبي داود (ص: ١٦٤)].

فالملائكة كما تنزل بالمطر الذي هو قوت الأجساد، تتنزل ملائكة أخرى بقوت القلوب والأرواح وهو التصديق بل والعلوم والفهوم[(١)] (تصديق بالحق)، وتتنزل بإرادة الخير والرغبة فيه وتحبيبه للقلب (إيعاد بالخير)، فيصلح القلب بزيادة تصديقه وفهمه وعلمه، وزيادة إرادته وحبه للخير، وهما قوتا القلب وبهما قوامه وصلاحه..

وما تتنزل به الملائكة هو مطابق لما في الفطرة من معرفة الله وحبه وتوحيده، فيكون مطابقا لما فيها، وبهذا صلاح العبد وسعادته..

وعلى هذا فالذكر سبب لليقين ولكمال إرادة الخير والانصراف عن السوء، بينما الغافل تأتيه الريب والشكوك، وكل قادح منافق في زماننا يقدح في قلبه شيئا يمرضه أو يحيره، والمعصوم من عصمه الله واستمسَك به ولاذ بجنابه فذكره ولم يغفل عنه حتى لقائه تعالى.. فاحذر فإن قطاع الطريق كثير فالْزم سلاحك وجنتك وحصنك بذكره تعالى، فتتنزل الملائكة بدلا من لزوم الشياطين؛ فإن في مقابل تنزل الملائكة ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦-٣٧]، وعندها تلزم الشياطين قلب العبد بالتكذيب بالحق والتشكيك فيه، كما تلزمه بالإيعاد بالشر وتقوية إرادة الباطل.

فاللهم اجعلنا لك ذاكرين وعندك مذكورين، واجعلنا اللهم لك ذاكرين، لك شكارين.

---

(١) راجع تفسير الإمام البيضاوي، سورة فصلت، قوله تعالى (تتنزل عليهم الملائكة).

العفة من أخلاق الصُوّام أهل هذا الدين

قرن الله تعالى بين الصوم وحفظ الفروج ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأَحۡزَاب: ٣٥]، وذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن «الصوم وِجاء» قاطع للشهوة للعزَب الذي لا يجد قدرة مادية على النكاح، وقال شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم أن الصوم يقلل مجرى الدم في العروق، وهو مجرى الشيطان من ابن آدم، فإذا قلّ المجرى بالصوم قلت وسوسته..

العفة اسمها حسن كمعناها، جبلت النفوس على محبتها، اسما ومعنى، الفطرة تعرف هذا، والوحي أكّده وقرّره وشدّد في أمره.

ضدها الفاحشة، فحُش سوؤها وقبحها في الفطرة والعقول المستقيمة والوحي الرباني، وذلك لتعاظم قبحها حتى إذا أُطلق اسم الفاحشة دل على الزنا أو ما هو أخس من الشذوذ وغيره.

الفاحشة اليوم تعيش تحت لافتة الإباحية، الإباحية اليوم تلتف بلافتة الحرية، والإباحية والفاحشة تستند بدورها للعلمانية التي تعادي شريعة رب العالمين وترفضها وتمنع قيامها وتحكيمها..

والعلمانية والإباحية والإلحاد تدافع عنها اليوم أجهزة وإعلام؛ هذه بالقوة وتلك بالكذب والتلبيس.

يريد هؤلاء ترسيخ الإباحية كقيم وثقافة في حياة الأمة، بنشء يرفض أحكام الدين وسيطرته على الحياة ويرى الحرية هي الخروج من قيود ما تمليه عليه «لا إله إلا الله»..

يراد أن تستقر من خلال التعليم والإعلام الذي يخطو خطوات مرتبة ومقصودة، يفلسفها بجرأة لا تنقصها الوقاحة رموزٌ للعلمانية والإباحية، ويجيزها شيوخ غير أمناء على أمتهم ودينهم، ثم مؤسسات تتعقب وترصد أي حراك إسلامي يصحح أوضاع المجتمع.

ثمة دياثة بدأت تدب في مجتمعاتنا وبدأ نوع من القبول لهذه الإباحية حتى فركوا أيديهم فرحا بهذا وأملا أن يستقر ويدوم ويرسخ..

لكن ما لا يعلمونه هو أن هذا الدين عميق وأن حب النفوس للعفة وتوافق الفطر مع هذا الدين أعمق من أن تلغيه كلاب لاهثة..﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾ [النِّسَاء: ٢٧].. بل إن المفاجأة أن الغرب المترع بالإباحية ما زالت تقوم الآلة الصهيونية في هوليوود بترسيخ تلك الإباحية وحمايتها وتعليمها للمجتمعات هناك وللأجيال جيلا بعد جيل حتى لا يخرج الناس عما قرروه بجهد من أمر هذه الإباحية، ذلك أنها طارئة على الفطرة، ولو تركت الفطرة بدون إلحاح على الإباحية لمالت النفوس إلى العفة..

وهنا يبقى هذا الدين وتبقى الفطرة التي يقررها ويؤكدها باقية ثابتة راسخة، تحارب الإباحية في عقر دارها وتستنقذ الكثير من تحت وطأتها في الغرب نفسه، وهنا كذلك يبقى الخطاب الرباني راسخا وتبقى الفطرة كذلك رغم تلك الفقاعات، ويبقى الإسلام يعمل عمله..

وهنا يرفع الصائمون شعار هذا الدين، صائمين وأعفة، ويبقى دورهم في رفض الإباحية بما تستند إليه من علمانية وإلحاد واستخفاف بالدين، ورفض فصل الدين عن الحياة، يعتصم الصائمون بربهم ويهتفون باسمه ويبقون على العهد يدلّون على الله ويدلّون على طريقه.. مستندين إلى قاعدة العبودية والتوحيد بقبول شرع الله ورفض ما سواه، بمعنى إفراد الله تعالى بحقه الخالص في التشريع.

العفة جميلة اسما ومعنى، عفة الكلمة وعفة النظرة، وترك الخلوة المحرمة والإيماءة المحرمة والفعل المحرم.. وتبقى الصائمة العفيفة ترفض ارتكاس النجاسة والوحل المنتن وتبقى مضيئة بقيامها بأمر الله تعالى تدل عليه بمظهرها ومَخبرها، وسلوكها وقيمها، تبقى درّة ـ ولو بين الغنم المستعرض بجسده الرخيص في الشوارع ـ مضيئة وسط الظلام..

وتعم العفة العفة عن المال الحرام، والمطعم الحرام، والمشرب الحرام، وغصب الناس أموالهم، وسرقة إرثهم، وجحد حقوقهم، وأكل مال الشريك والغافل والصغير والضعيف واليتيم والأرملة والعمال الفقراء والمساكين والبسطاء..

عفة الفرج وعفة البطن متلازمان.. إنهم الصائمون.. صرّة من مسك بين الناس خُلُقا وأمانة وعفة وأمانا.. روى أحمد رحمه الله في حديث يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه قال: «..وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ..الحديث» [مسند أحمد ط الرسالة (٢٨/ ٤٠٥)].

يقول ابن القيم ومن صام عن الشهوات في الدنيا أفطر عند لقاء الله تعالى.. فنِعْم الفطر إذاً.

القرآن رسائل الله إليك

ذكر تعالى نزول القرآن العظيم في رمضان موطّئا للأمر بصيامه ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٥]، أجمع الكتب وخيرها وأعلاها.. عليّ في اللوح المحفوظ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزُّخْرُف: ٤]، وفي السماء ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الوَاقِعَة: ٧٩]، وفي الأرض محفوظ من التبديل والتحريف، فلم يبدل منه حرف، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجْر: ٩]... وذكر تعالى ليلة نزوله ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ [الدُّخَان: ٣-٥] فذكر تعالى أن فيها نزول القرآن وفيها فرق الأمور وتقديرها.

القرآن هو رسائل السماء إلى الأرض، خطاب الله تعالى إلى العبيد، وهذا نبأ عظيم وحدث ضخم وأمر جلل في التاريخ البشري ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩﴾ [ص: ٦٧-٦٩]..

حدثنا الله تعالى فيها عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه، عن رضاه وسخطه، وعن بعض ما يحدث في الملأ الأعلى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سَبَإ: ٢٣]..

حدثنا الله فيها عن مبدأ الإنسان ومصيره وما يراد منه، وعن قدر الله فيه وتعامله معه، وعن مكانة هذا المخلوق ووظيفته..

تفضل الله تعالى فتناول تفصيل حياة العبد وذكر أحكامه إليه في شأنه الفردي والعام وكافة علاقاته، بربه ونفسه وخلق الله، مؤمنين وكافرين، أولياء وأعداء، أرحام وأباعد، فذكر تعالى حكمه وتكليفه للعبد لتستقيم حياته وحياة أمته، ويصلُح شأنه..

كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظانا، ترتله بين يدي ربك، وتنصب قليلا لهذا الترتيل، لثقل هذا الكتاب في السماوات والأرض، فلو نزل على جبل ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحَشر: ٢١]..

تعرف فطرتك خطاب الله تعالى، لا تخطئه بصيرة ولا فطرة نظيفة تسمعه تقول: أعرفه.. إنه كلام ربي، يخاطبك فينفذ إلى أعماقك ويكشفك أمام نفسك ويحنو عليك ويأخذ بيديك، يأخذك برفق ويدعوك إلى المعالي، يشغلك بقضايا السماء ويعرفك خطوها وكيف تسير الأحداث على الأرض، وأن وراءها حكمة ورحمة ونصفة الحق ودمغ الباطل..

يرفع اهتمامك، ويسمو بشخصيتك، ويخرجك إخراجا جديدا، ويعيد صياغة نفسك، ويعيد ترتيب حياتك وفقا لمنهج رب العالمين..

يحدثك عن السابقين ويلحقك بالصالحين وتعايش المتقين وتصحب الأنبياء..

تأمن في كنفه؛ فعلى الطريق سار قبلك خيّرون، فانظر إلى عاقبتهم هنا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الرُّوم: ٤٧]وانظر إلى عاقبتهم هناك ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦–٢٧]..

كما تعرف عاقبة الباطل هنا ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإِسۡرَاء: ٨١]، وهناك ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٣٧﴾ [الأَنفَال: ٣٧].

تعرف ماذا يقول المقربون من الملائكة، حملة العرش والكروبيون، تعرف ما يقولون وما يشغلهم، تعرف عن الغابرين، وعن مصير الحياة والأحياء وعن الدار المنتظرة لكلٍ، محسنٍ ومسيء..

يأخذ بك للقرب من ربك، وأنت على يقين بأن ما شرع لك فيه حقا يرضي ربك، فتقرب من ربك على بينة ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأَنۡعَام: ٥٧]، وإذا بك تشعر بالقرب وتذوقه وتراه، فيأخذ من ذلك العالم الفاني إلى حياة خاصة جدا وغايات سامية وقضايا كبيرة وأهداف رائعة، فتسعد وأنت تخوض معاركه وتهتم بصراعاته وقضاياه..

يرسم لك حياة من جديد ويوضح لك معالمها..

جاء القرآن ونزل ليعيد إخراجك وإخراج الأمة.. يبني خطابه على حق الله الخالص بالتوحيد وتلقي الشرائع وقبول المنهج، ثم يشرع يبين لك تفاصيل المنهج، حتى استئذان الصبيان في البيوت في دخولهم عليك، ومعاشرتك لأهلك وإنفاقك المال وقسمة إرثك وطريقة مشيتك ودرجة ارتفاع صوتك وانتقاءك للكلمة وعفة النظرة وأداء الحقوق وإقامة العدل وحفظ الغيب.. وهكذا تفاصيل من باب الرحمة والمنة ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦] يعني لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا، ولذا ذكر الله رسالته في إطار المنة ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٦٤]..

كما نظم حياة المجتمع والدولة في أدق مجالاتها، بأحكام مفصَلة أو قواعد عامة ومقاصد وحدود وتصورات وقيم..

إنه النبأ العظيم والحدث الضخم والأمر الفارق والجلل.. أخبرني، بل أخبر نفسك وأخبر ربك.. كيف استقبلت هذا النبأ العظيم وتلك الرحمة السابغة وتلك المنة الفريدة؟ فرحت بها أم ضاقت بها نفس ظالمة؟ قل هو نبأ عظيم.. صدق الله العظيم.

إلى الصلاة تأوي ومنها تنطلق

شرع الله الصيام بالنهار، وشرع القيام بالليل، فيقرن العبد بين أن يكون صواما وأن يبيت قوّاما..

والصلاة هي الإتيان بكينونتك لتقف بها بين يدي ربك تعالى.. وهل من صائم لا يذوق طعم الصلاة؟

تعرف معنى الصلاة ومعنى أن تأتي ربك بكينونتك تعرفه من حديث رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ركوعه الذي يبين كيف كان يركع صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى منواله كيف يسجد أو يقوم أو يحمد أو يستغفر..

روي الشافعي في مسنده أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في ركوعه «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَأَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَعِظَامِي وَشَعَرِي وَبَشَرِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**»، ورواه مسلم، وفي روايته أنه كان يقول: «**اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي**».

فكان في ركوعه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشعر بهذا الركوع شعورا عميقا، فيركع السمع ويركع البصر، يركع المخ ويركع العظم ويركع العصب ويركع ما حملته قدمه..

فكذا يكون الوقوف قنوتا، فيقنت بين يدي ربه حال وقوفه، يقنت ويخشع ويخضع بكينونته؛ فيقنت السمع ويقنت البصر ويقنت المخ ويقنت العظم

ويقنت العصب وتقنت جملة ما حملته قدمه من لحم وعظم ودم وعصب وعِرْق، وكل خلية في جسده وكل قطرة دم في عروقه.

وكذا سجوده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسجد السمع ويسجد البصر ويسجد المخ وتسجد العظام.. تسجد كل قطرة دم وكل خلية في كينونته.. لله رب العالمين؛ فقد روي نفس دعاء الركوع ـ السابق ذكره ـ حال السجود عن بعض الصحابة.

وكذا حال حمده بعد ركوعه.. يقف ليحمد معه السمع ويحمد البصر ويحمد المخ ويحمد العظم ويحمد العصب وتحمد جملة ما حملته قدمه لله رب العالمين..

وبين السجدتين يقعد ليستغفر، لا يستغفر لسانه فحسب، بل يستغفر السمع ويستغفر البصر ويستغفر المخ ويستغفر العظم ويستغفر العصب.. تستغفر كل جارحة.. يده ورجله ولسانه وبطنه وفرجه وجلده..تستغفر كل خلية في جسده، كل مزعة لحم.. يستغفر قلبه من كل وساوس وخواطر، ومن أي معنى محرم أو لا يليق.. لا تترك شيئا من كينونتك لا يصلي، ما بين قنوت وركوع وحمد وتذلل لربك واستغفار له..

كل هذا على وجه المشاهدة واليقين والحضور..

ثم تدبر كتاب ربك وكلامه تعالى وتلقَّ منه خطابا على وجه المشاهدة والحضور، خطاب لك أنت، أنت أنت، ولواقعك أنت؛ ذلك أن الله تعالى سيسألك عما أنزل إليك وما خاطبك به، مقصود به شخصك وواقعك..

ثم تدبر ذِكرك له تحميدا وتهليلا، تسبيحا وتكبيرا، وتوكلا وخشوعا..

التسبيح وما يشتمل عليه من أمر التعظيم، والنظر إلى صفات الجلال والعظمة والبهاء..

التحميد وما فيه من النظر إلى صفات الجمال والإكرام والعطاء..

التهليل «قول لا اله إلا الله» وما فيه من تجريد العبودية طاعة وتعظيما ومحبة وخشوعا واستعانة ورغبة ورهبة ورجاء، وسائر مفردات العبادة..

التكبير وما فيه من تعظيم الرب واستصغار ما دونه، وجودا وحياة وقيومية، وغاية وقصدا.

«لا حول ولا قوة إلا بالله» وما فيها من توكل وتبري من الحوْل والقوة والخروج من قوتك وحوْلك إلى قوة ربك تعالى وحوْله..

الدعاء واللهج به وإظهار الذل والافتقار وإنزال الحوائج بالله تعالى وحده.. تطلب منه حوائج الدنيا والآخرة..

يقول ابن القيم رحمه الله «فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني. أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

يامن ألوذ به فيما أؤمله — ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره — ولا يهيضون عظما أنت جابره

وعلى منوال هذه العبودية تكون الصلاة بكينونتك، فتشعر بمعنى الوقوف والقنوت، وتشعر بمعنى الركوع والخضوع، وبمعنى السجود والذل، وبمعنى الحمد والثناء والامتنان، وبمعنى الاستغفار والتوبة والندم..

كما تتدبر كلام ربك وتتلقاه، رسائل ربك إليك..

وتتدبر ذِكره قائما قلبك بمعاني ما تقول، والدعاء والتضرع والافتقار لربك والذل بين يديه..

وكل هذا على وجه اليقين والمشاهدة والنظر بقلبك «كأنك تراه»..

تلوذ إلى الصلاة من انشغال طويل ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المُزَّمِّل: ٧] فتأوي إليها، ومنها تنطلق..

أخي إنه من لا يحسن صلاته فما أحسن، ومن لا يحسن صلاته فماذا سيحسن؟ ومن لا يحسن صلاته أو ضيعها فهو لما سواها مضيع..

التقوى غاية

جعل الله تعالى غاية الصيام التقوى فقال ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٣].

يعلم الله تعالى أن الترك من أجله، جوعا وظمأ وتركا للشهوة من أجله، مع الذكر وقراءة القرآن، أن هذا مقرب لتحقيق التقوى.. تلكم الغاية التي ذكرت في الصيام كما ذكرت في غاية الخلق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البَقَرَةِ: ٢١]، والتقوى في الآية إما أن تكون متعلقة بالخلق ﴿خَلَقَكُمۡ.. لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، أو متعلقة بالعبادة فيكون الجهد المبذول بالتوحيد ثم امتثال الأمر، من أجل الوصول للتقوى ﴿ٱعۡبُدُواْ.. لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

التقوى حالة بشرية فريدة، تحتاج إلى جهد للوصول إليها، حيث جعلها القرآن جائزة يستحقها صاحبها بعد امتحان لقلبه ومواقف، ليثبت نجاحا يستأهل به التقوى، فالتقوى ليست منّة منك تُعرض أو تتكاسل عن تحقيقها في حق ربك! حاشا وكلا؛ بل هي منة من الله تعالى أن تصل لتلك الحالة البشرية الفريدة والسامية..

انظر إلى الجهد والامتحان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [الحُجُرَات: ٣] تحتاج إلى تدبر عميق.

وانظر إلى قوله تعالى عن موقف أصحاب محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحرج المواقف بين الجهاد والبيعة على الثبات ثم البيعة على الموت ثم صلحا يخالف ظاهره ما خرجوا من أجله، وما بين التمسك بالإسلام والصبر على اختلاف الأحداث وبذْل ألوان من العبادة مختلفة، يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفَتْح: ٢٦].

التقوى وصية الله للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ١٣١].

الناس يعيشون ويتكلمون ويفعلون ويشعرون، كما يشاؤون، لكن ذلك التقيّ هو حالة فريدة، حالة الشخص الرباني؛ شعوره عبادة وتقرب، وأفعاله عبادة وتقرب، وأقواله عبادة وتقرب، وآثاره خير ودلالة على الله تعالى..

حبه كخوفه كرجائه قربان، أمله وطموحه وأُفُقه قربان، حساسيته ودوافعه قربان، غايته من كل حركة في الحياة قربان، رؤيته للحياة والأحياء والأحداث قربان، كل لحظة تمر عليه، يراها ويشعر بها ويشغلها بما يكون قربانا، غير ما يفعل الآخرون ويقتلون أوقاتهم! الفارغة! لأن قلوبهم فارغة.

التقوى غاية عمر، وغاية جهد..

التقوى حالة تُعاش، وطعمٌ يُذاق، وملبس يستر ويزين.. التقوى حساسية في ضمير وإرهاف في حس.. كلِمٌ طيّب وفعل حسن وأثر خيّر.. التقوى أمان للأعراض وأمان للدماء وأمان للأموال.. يأمن معه كل عرض وتستتر به كل عورة.

التقوى أمان على المشاعر، حيث هناك الرقيب.

التقوى إقدام في موطنه ولو تأخر جبان أو بخيل أو لاهٍ أو شحيح، إقدام ولو بذل ماله ودمه، وعمره وراحته.. وإحجام ولو سال لعاب الآخرين واستسهلوا الحرام أو برروه أو تقاتلوا عليه..

التقوى تقف أمام الجيوش الظالمة والعروش المهابة والشهوات المترعة والحرام المزيَن والشبه الزائفة ولو تزخرفت والرموز الباطلة ولو طنطنت..

التقيّ يستعصي على التضليل والإضلال، والتزيين والإغواء، والتوجيه للأهواء والاستخفاف..

باطن كظاهر بل خير منه، وسر كعلانية بل خير منها، مدخل كمخرج بل خير منه، فعل كقول بل خير منه..

لذا علق تعالى بهذا الاسم العظيم الجنة في مواطن كثيرة من كتابه، يأمنون إذا فزع الآخرون ويفوزون عندما يتحسر الكثير، أجّلوا الفوز ليوم الحساب ففازوا في الدارين.. فسبحان من يختار ويصطفي.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القَلَم: ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطُّور: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحِجر: ٤٥] ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القَمَر: ٥٤] ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزُّمَر: ٦١] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٣-٣٥] ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ [النَّبَإ: ٣١]..

ابحث عنهم في كتاب الله وسير الأولين.. إنهم العملة النادرة وخير نتاج بشري..

فاللهم.. اللهم.. اللهم ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفُرقَان: ٧٤].

مجالات التقوى وآفاقهـا من باطن الصدور إلى محراب العبادة، إلى واقع الناس، إلى قيادة الأمة

عندما تكون التقوى غاية عمر، وغاية جهد..

وعندما تكون التقوى حالة تُعاش، وطعمٌ يُذاق، وملبس يستروزين.. وعندما تكون حساسية في ضمير وإرهافا في حس.. كلِمٌ طيّب وفعل حسن وأثر خيّر..

فاعلم أنها تبدأ من القلب «**ألا إن التقوى هاهنا، ألا إن التقوى هاهنا، ألا إن التقوى هاهنا**» وأشار إلى صدره صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.. فتقوى القلوب هي أصل التقوى ويلزم منها تقوى الجوارح..

الغيب في القلب التقيّ شهادة، يعيشه بكينونته، أكثر مما يعيش الحاضر المنظور، شاغله غدا يقدم له ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحَشۡر: ١٨].. يذكر الموت والبلى، والمصير في القبور وصمتها وظلمتها، وطول يوم القيامة وضحّه وهجيره وظمأه ونصبه، وخوفه وفزعه، وميزانه الدقيق الذي لا يغفل مثاقيل الذرّ.

يزعجه ويقلقه أمر الآخرة فيهبّ من الرقاد للمناجاة والأنين، وإصلاح الحال، لعله ينجو ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزُّمَر: ٩]..

يعدّ نفسه في أهل القبور، لا حزنا ولا صراخا ولا عبسا في وجه أحد، بل بحثا عن بضاعة إذا نزل بها هذا المنزل كان سعيدا ناجيا، ينجو من كروبه وظلمته وضيقه، وينجو مع دوده وبلاه ونسيانه.. وإذا خرج منه يوم الموقف كان آمنا وسعيدا، ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؟ [فُصِّلَت: ٤٠]..

التقيّ شخص مشغول بالوقوف بين يدي ربه، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المُطَفِّفِين: ٦].. يخاف من حيرة اليوم وفزعه وتقطع الأنساب والأواصر وفقدان الحميم والأخلّاء.. مشغول بالميزان قلق من الصراط، لقلبه وجيب ووجيف من تلقي الصحائف ومن لحظة سماع حكم الله تعالى بالنجاة أو الخسران.. هذا شغله وهذا إحساسه..

التقوى حالة للكلمة الصادرة، بين السوء والخير فيأت الخير، كلمةً وأثرا للكلمة، وما بين حسن وأحسن فيقول التي هي أحسن.

وفي الأفعال.. التقوى في معرفة الواجب والشعور به، وهيبته، وفعله، وترك المحرم والشعور بقبحه وهيبة إتيانه..

للتقيّ حواجز وحدود ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: ٣١-٣٣]..

التقوى في الأخذ والعطاء، والموقف.. التقوى في مواقف الإشهاد التي يُقتدَى به فيها، أو تشرئب الأعناق إليه. التقوى في حال الصمت أن يصمت قاصدا ترك الأذى، وفي الكلام أن يدفعه إليه طلب الخير والتوجيه إليه والدلالة عليه.

التقوى ينظر بها صاحبها إلى أثر أفعاله وأقواله ومواقفه وآثارها، يخشى من عمل ينتهي منه ولا تنتهي منه الملائكة كتابةً لأثر سيء، كما يخشى أن يغادر الدنيا

وما زال يُكتب له سوء من جرّاء عمله.. بل يبحث لاستمرار الأثر الحسن بعد انتهاء العمل بل انتهاء الحياة.

التقوى حساسية وخلُق، ومراعاة للشأن العام، وحق الناس، فلا يغتاب ولا يجرح صاحب ألم أو آفة، لا يحرج ضيفا ولا يعيب مضيفا، لا يكيد ولا يستعلي ولا يحتقر مسلما، لا يزعج جارا ولا يؤذي طريقا، لا يضيق طريقا عاما بسيارة أو أغراض محل، فللطريق حرمة وللمسلمين حقوق.. وفيّا للرحم والجار والصاحب، رفيق بالصاحب في الطريق وزميل العمل والشريك، لا يؤذي بصوته ولا نظرته ولا كلمته.. نظيف جميل لا يضع الأذى بل يزيله، أخلاقه في قمة الحضارة وأرقاها، ليست الحضارة الإنسانية فقط بل ما هو أعلى من ذلك، إنها حضارة الإيمان.. الحضارة الربانية..

إنه التقيّ.. ذلك العنصر الذي تقوم عليه النهضة وتتقدم الأمم ويؤتمن على مقدرات بلده فيرعاها ويحفظها أمينا وفيا يقدم الشأن العام على شأنه الفردي الشخصي، فشعوره بأمّته أعلى من شعوره بشخصه.

التقوى في المواقف العامة وإصلاح الأمة، ونصرة الدين وإقامته وإقامة أحكامه، وولاء المؤمنين، ودحر الباطل، وإقامة المؤسسات لإقامة الدين ورعايته، وإصلاح المجتمع، ونشر الدعوة والخير، ورعاية الفقير والضعيف، وتفريج الكروب وتنفيث الهموم وكف الدمعة وستر العورة وكفاية الحاجات وسد الخلات، وتقدم الأمة وامتلاكها القوة وتوطين العلم واجتياز الفجوة الحضارية مع الغرب، والقيام بأمر الرسالة ونشرها وبلاغها، وتربية الأمة وفق منهج الله إعلاما وتعليما وتوجيها وثقافة..

التقوى سمت وهدي وصلاح، حال وملبس، التقوى يظهر أثرها على وجه صاحبها وفي ثقل عمله وأثره، التقوى تصنع شخصية جديدة وفريدة.. ترجو خيره وتأمن شره، وتأمن على غيبتك لو فارقته، مطمئنا لقلبه وصدره، آمنا على موقفه، تأمن على عرضك ومالك وعورتك.. يسترك ويتألم لمعصيتك ويحب استقامتك ولا يرى لنفسه فضلا عليك! لا ينافس في دنيا، ولا يضيق بخير سيق إليك؛ إذ في الجنة متسع للتنافس والخير.. صدر فسيح ويد جوادة وشعور حسن وظن بخير.. يدلك على الخير بحضوره وغيبته، بواقعه وذكراه، بحياته ومماته.. قد لا تفطن إليه، لكن الملائكة مشغولة أن تكتب عمله وقوله وأثره ومشاعره واتجاهاته، وحزنه وفرحه، وهمه وقصده..

أمانيه ليست في الأرض بل في السماء، وللسماء شغلها بهذا التقي..

أرأيت كم نخسر ونحن ننصرف عن الغاية التي أرادها الله لنا؟

إن للسماء أمرها وللملائكة انشغالها.. انظر فيم يختصمون!! قال ﷺ «..**فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد! فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟. قلت: لا أدري رب. قال: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى؟. قلت: لا أدري رب. قال: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى؟. قلت: لا أدري رب. فرأيته وضع كفّه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله في صدري، وتجلّى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد! فيم يختصم الملأ الأعلى؟. قلت: في الكفّارات والدرجات. قال: وما الكفارات؟. قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء على الكريهات. فقال: وما الدرجات؟. قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام**»..[رواه الترمذي].

أرأيت فيم انشغال الملائكة؟ شغلهم بالأتقياء.. فأقول لنفسي، ولك، ولكل مخلوق.. اتق الله.

الصيام جزء من منهج
لا يتم الصيام إلا بقبول المنهج كله

الصيام شعيرة من شعائر الإسلام، وحكمه الوجوب، والوجوب في الإسلام ليس وجوبا فرديا في النطاق الفردي الخاص، بل الوجوب في هذا الدين وجوب فردي وجماعي يقوم به الفرد في خاصة نفسه وتقوم به الجماعة ممثلة في تعاون الفرد مع إخوانه وممثلا في دولة وسلطة قائمة على إقامة الدين وفرائضه وحفظ المحرمات والحدود وإقامة المجتمع على أساس التصور الرباني للحياة والأحياء والعلاقات والأموال وسائر ارتباطات البشر أفرادا وأسرا ومجتمعات وسلطة وعلاقات متبادلة.. وإعلام وتعليم وثقافة وهوية..

الصيام فرع عن أصل كبير يقول للناس كلها، على لسان نبيه، ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ [الشُّورَى: ١٠]، فحق الربوبية والتوجه إلى الله بالطاعة يظهر في هيمنة التشريع الرباني ـ والصوم أحد أفراده ـ على الحياة كلها..

التشريع الرباني الذي يغير الحياة تغييرا عميقا.. تصورا، وقانونا، وحدودا، وأخلاقا، وتوجيها.. يغير الفرد والمؤسسات والشارع والمجتمع ونظم التعليم والإعلام..

الإسلام أحكام قانونية؛ مدنية وجنائية واجتماعية ودولية، وقوانين أسرة، الإسلام قيم وأخلاق، فنون وآداب، مؤسسة حاكمة وتوجيه إعلامي وتربية

تعليمية، تصور عن الحياة، ورسالة أمة إلى العالم، وصْلة لسلسلة النبوة المباركة للأنبياء جيلا بعد جيل، بالقيام بإرث محمد ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الجامع لما قبله والمهيمن والشاهد عليه.

التشريع الرباني منحة ليقوم الناس بالقسط، فقد نزلت الرسالات من أجل إقامة هذا المجتمع وهذه الحياة على وفق القسط المنزل وإقامة العلاقات على أساسها، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحَدِيد: ٢٥]، والقسط هو ما أنزل الله لا ما يظنه البشر.

لا يستقل الخلق بالتشريع وإلا لما احتاج الناس إلى الرسالات، لكنه تعالى أنزلها رحمة للعاملين لاحتياجهم إليها، ولدخول احتياجهم إلى تشريع رب العالمين في قوله تعالى ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فَاطِر: ١٥]؛ فمن لم ير احتياج البشر لتشريع ربهم فإما جاهل، أو معاند أو كاره لأمر ربه تعالى.. ومن لم ير تشريع ربه رحمة بل حِملا فما أجهله.

الشريعة هي الحق المقابل للهوى ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المَائِدَة: ٤٩]، فإما هذا وإما ذاك، العبودية أو الهوى، والهوى مفسد للحياة، ليس فقط، بل للأرض، ليس فقط، بل ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المُؤْمِنُون: ٧١].

المشرعون من البشر جُهّال وأصحاب قصور وأهواء وصفقات وانحياز لمصالح أو أعراق أو أجناس أو أحزاب أو طوائف أو أيديولوجيات، أو يوجَهون من خلال أجهزة خبيثة أو أرباب أموال أو رؤوس فساد.. يتلاعبون بحياة ومشاعر ومصير أغلى مخلوق وأسماه، وهو الإنسان.

نازعوا الله في حقه.. لم يخلقوا ولم يرزقوا، ولكنهم يغتصبون حقَ من خلق ورزق ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوۡبَة: ٣١] ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢١].

الإباحية عندهم والفاحشة حرية، والربا نماء، والخيانة وجهة نظر.. يخالفون الفطرة ويقتلونها، يشقون وتشقى بهم الأمم.

الإسلام منهج الله، فرض الصيام ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وفرض القصاص ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ وشرع الآداب لتحقيق التقوى، وشرع جميع الشرائع على نفس منوال الصيام لتحقيق التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البَقَرَة: ٢١]، فلا يحققها امرُؤ يرفض بعض أحكامه أو يرفض تدخل الدين في حياته، بل لا يكون مسلما ابتداء، فإن أصل التقوى اتقاء الشرك ثم اتقاء المحرمات..

الصيام فرع على تحقيق الخضوع والدينونة لله تعالى بقبول حكمه والاستسلام له تعالى، عنوان الاستسلام «لا إله إلا الله» وحقيقته تحقيقها بإفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة في التشريع، فردا ومجتمعا، فيقرر إقامة الحياة على وفق مقتضى إعلانه أنه لا إله إلا الله، فتقوم الشريعة ويقوم الدين..

تقوم المؤسسات بناء على عقيدته وتصوراته وقيمه وأحكامه، وتقوم من أجل تحقيقه، يحكم السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفنون والآداب، لا يقبل الإسلام أن ينحَى عن هذه المجالات، فللإسلام حكمه في كل هذا وقيمه وأهدافه وغاياته التي تتحقق في هذه المجالات ومن خلال الأفراد والمؤسسات.

عند وجود أمة تحمل هذا المفهوم وتلك العقيدة فلن تماحك في أحكامه وسيادته راقصة ولا يعترض ديوث ولا يجادل جاهل ولا يحارب علماني إلا واجهته الأمة، بدلا من أن يصبحوا رموزا!!..

لكن أين الأمة التي تحمل وتتبنى هذا المفهوم؟ عن هذا نبحث، وفي ميلادها من جديد وإخراجها الثاني نأمل إن شاء الله، ونرى الأمر عن قريب بإذن الله.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون..

الصيام شعيرة ظاهرة وهو جزء من هوية أمة

الصوم شعيرة.. وهو شعيرة ظاهرة، والشعائر الظاهرة هي شعار أمة لها تشريعها ولها عقيدتها، ومن ثم فمن تمام شريعتها ومن لوازم عقيدتها أن تكون لها هويتها، المنبثقة من هذه العقيدة ومن لوازم تلك الشريعة..

نحن أمة تصوم، ليست هي الفراعين، ولا الأمازيغ ولا البابليين ولا الفينيقيين.. ليسوا العرب أو الترك الأفارقة أو الفرس أو البربر.. إنها أمة الإسلام.. ثم تنصهر تلك الانتماءات فيها وتعمل من خلالها كفصائل عمل لهوية واحدة.

فالإسلام عقيدة وشريعة وهوية.. الصوم أحد تلك الشرائع، وهو فرع من شرائع تحكم الحياة؛ فهو جزء من شريعة ودلالة على هوية..

قد يعيش المسلمون في أوطان لها سيادتها، لكن هذه الأوطان لا تمثل حواجز ولا هوية بديلة، بل أخذت الأوطان قدسيتها من الإسلام وأخذت قيمتها من أنها «أوطان إسلامية» تمثل بيضة الإسلام وحوزته وأرضه التاريخية.

لا تجتمع أمتنا على تخوم الأرض ولا نعرات الجنس ولا تعصب العنصر، بل تجتمع على «لا إله إلا الله»، يئن المغربي لأخيه في مصر، ويتألم الجزائري لأهل غزة، وتنتفض الباكستان من أجل القدس، وتبكي ماليزيا من أجل أمتها.. نعم هذا يحدث، إلا من خونة الأمة..

أمة يجب أن تكون الشريعة الواحدة هي الحاكمة، والهوية الواحدة هي الجامعة، توجب بينها التعاون والتكامل ووجوب الوحدة ونصرة القضايا ويحرم على جزء منها موالاة العدو أو مناصرته سرا بالتآمر أو علنا بالتظاهر. لا تضر فئة من المسلمين بأخرى، مع وجوب السعي لوحدة الجميع لتحقيق منهج الله..

يأخذ المسلم جنسيته من عقيدته، وشعوره بإسلامه أعلى من أي شعور بانتماء آخر، ألا إن الحدود تراب، لا تفصل قلبا يحمل عقيدة عن قلب يحمل نفس العقيدة..

يقول بعض الأفاضل من العلماء المعاصرين «كن مسلما أولا، ثم كن ما شئت بعد ذلك».

عقيدة جمعت بيننا وين نوح ولم نره، وفرقت بين نوح وابنه وكانا في بيت واحد.. جعلت إبراهيم أبانا بمجرد إسلامنا وفرقت بين إبراهيم وأبيه.. جمعت بيننا وبين الملأ الأعلى فتدعو لنا حملة العرش والمقربون، ولم نرهم ولم نعرفهم إلا من إخبار الله باهتمامهم بأمرنا.. أمة واحدة ولو تباعدت الأقطار أو اختلفت الأجناس أو الألسنة أو الألوان، ولو بين إنس وجن وملائكة.. قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «..**فإنه زاد إخوانكم من الجن**» فأثبَت الأخوّة بيننا وبين جنس آخر لا نراهم.. إنه الإسلام.

أشرف ما في العبد عقيدته، وفيها يلتقي المؤمن مع غيره أو يفارق.. أخوّة عبر الزمان مع جميع المؤمنين من نوح إلى إبراهيم إلى أصحاب موسى الكليم إلى عيسى المسيح، من سحرة فرعون لما آمنوا إلى أصحاب الأخدود.. من هود وصحبه، إلى صالح ومن معه، إلى لوط وأهله، إلى شعيب والمؤمنين، حتى محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.. يقول اللاحق للسابق ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحَشر: ١٠]..

من لم يدرك هذا فليقرأ القرآن ولينظر في حكم من عبد غير الله، أو تحاكم إلى من سواه، أو والى غير المسلمين، ليرى أن حكمهم واحد، فنفى الله الإيمان والإسلام والتوحيد عمن عبد غيره، وعمن تحاكم إلى ما سواه ورغب عن شريعته، أو حكم بغير شرعه، أو والى الكفار على المسلمين.. كذلكم قال الله من قبل.

إنه الإسلام عقيدة وجنسية، شريعة وهوية.. فمن ابتغاه غير هذا فليس هذا عندئذ دين الله تعالى، بل أمر مزيف.. أما الإسلام فلا ينزع منه عقيدته، كما لا تنزع عنه شريعته قانونا حاكما لشتى مناحي الحياة، كما لا تنزع عنه هويته، ولا عن أصحابه جنسيته.. إن الدين عند الله الإسلام.

فإذا اجتمع المسلمون على رؤية هلال دخول رمضان فصاموا جميعا، بلا فروق وطنية أو قومية.. ثم إذا اجتمعوا فرأوا هلال شوال فأفطروا جميعا، وإذا خرجوا جماعات في مشارق الأرض ومغاربها لإقامة شعيرة من شعائر الإسلام، فليتذكروا أن هذا كله فرع عن أصل ضخم، وهو أنهم أمة واحدة..

وفجيعة غزة تدمي قلوبنا وأفراح المقاومة أفراحنا، والجندي المسلم الذي يذل الصهاينة هو محلّ احترام ومحبّة ونصرة الأمّة بكاملها.

المسلم أينما كان، وبحسب ما يقوم به، هو الأقرب.. ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هُود: ٤٦]..

الحديث يطول ولكن في هذا تنبيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع أو به بقية من ضمير أو بعض من دين.

خاتمة الصيام والأعمال
وأفراح المؤمن

نعم يفرح المؤمن.. لكن بم؟

يفرح بإنزال الكتاب.. نعم يفرح، فهذه أفضل وأكمل حالات القلب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الرَّعۡد: ٣٦]، يعني من آمن به منهم من الخاشعين.

يفرح بالإيمان وإنزال القرآن، وقبوله والإيمان به.. بهذا أمر الله تعالى وجعله أوْلى ما يفرح به.. ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يُونُس: ٥٨] يعني بالإيمان والقرآن.

يفرح بامتثاله الأمر؛ بقيامه بالحسنة وتركه السيئة، كما أن حزنه أو خوفه إنما هو حزن أو خوف في حال أن يعصي ربه، ففرحه وحزنه في إرضاء الرب تعالى أو سخطه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ «**إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك، فأنت مؤمن**».

يفرح بإتمامه ما أُمر وتمام معونة الله تعالى له ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البَقَرَةِ: ١٨٥]..

يفرح بقيامه بالمنهج واستقامته عليه ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحُجُرَات: ١٧].

يفرح بتحقيق المنهج على الأرض ونصرته وتمكينه وتوجيهه للحياة لينعم الخلق بهذا الدين وتلك المنة.. ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ..﴾ [الرُّوم: ٤-٥].. وهو نصر ليس للعبد فيه نصيب إلا أنه يفرح بتمكين منهج ربه وإيصال النعمة لإخوانه من العباد.

ففي سورة النصر ثلاث آيات بها ثلاث حقائق، وعبوديات مختلفة..

الأولى بشارة بالنصر المترتب على الجهاد، والمقصود به تحطيم قوى البغي والأوضاع المادية التي تقيم الكفر وتحميه وتفتن الناس؛ فهو نصر مؤسسي، وسماه ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فهو منسوب إليه تعالى، لأن العمل والجهاد «سبب» لا بد له من مكمِل ولا بد من إزالة العوائق، وهذا لله تعالى، فما من سبب إلا وهو في الحقيقة جزء سبب.

وسماه ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ لأنه من أجله لا حظ فيه للنفوس، إلا أن ترى دين الله ممكّنا وكلمته عالية ورايته خفاقة.

وفي الآية الثانية نتيجة النصر المنشود، وهي المنشودة من ورائه، وهي دخول الناس أفواجا في دين الله، ببيان الحق وهو منتصر وعدم تشويهه وعدم فتنة الناس عنه، فهذا هو المطلوب.. جهاد وتجرد، بغرض دخول الناس إلى «دين الله» وليس في طاعة البشر، فهذه هي فرحة المؤمن أن يذوق الناس طعم هذا الدين وتلك النعمة العظيمة، بأن تصل الأمانة التي يحملها إلى عبيد الله تعالى.

فالأولى انتصار لكلمة الله وإعلاء النظام السياسي والاجتماعي الإسلامي، والثانية لينعم الخلق بهذه العقيدة بصورة فردية عن خيار حر حقيقي ورؤية للحق مطبقا في شكل نظام سياسي واجتماعي.

وفي الآية الثالثة التسبيح والاستغفار التزاما بالعبودية وهضما للنفس، وتواريا لدورها، طالبا العفو والمغفرة على التقصير..

فالسورة دائرة على تحقيق الجهاد وإكمال الله نتيجته للمجاهدين بالنصر، مؤسَسيا وفرديا، وبيان الغاية المرجوة بهداية الخلق لا البغي عليهم ولا الاستطالة، وهضم النفس وإخراجها من الصراع والأجر الدنيوي طلبا للعفو والمغفرة وجبر النقص ومغفرة التقصير، تحقيقا للعبودية وإتماما لها.

فهذه هي فرحة المؤمن بالنصر عندما يأتي، بهذا يفرح ولهذا يفرح.

يفرح عند لقاء ربه، وفوزه، حيث لقاء حبيب لحبيبه، ويرى قدر كرامة الله للمؤمن وقيمته عند ربه تعالى.. وراجع إشارة البيضاوي في التفسير لآية يونس ومثلها في سبأ، ففي يونس يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ④﴾ [يُونُس: ٤] «بتغيير النَّظْم بين إثابة المؤمنين وعقاب الكافرين والنص على تعليل إعادة الخلق يوم القيامة بإثابة المؤمنين - يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات - كأن البدء والإعادة مقصود بهما إثابة المؤمنين بالذات، وأما العقوبة فبالعرَض كأنه داء ساقه إليهم لسوء أفعالهم» [راجع تفسير البيضاوي في الموضعين].

ومثلها في سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ③ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾ [سَبَإ: ٣-٤].

ففي الآيتين أن القيامة تقوم لإثابة المؤمن، فهو المقصود، وقيمته في الحياة والكون ودورة الوجود هي هذه القيمة التي تلفت إليها الآيات..

نعم بهذا تفرح، كما يفرح المؤمن بالدلالة إلى الهدى والاصطفاء من بين الخلق بالتوحيد ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فَاطِر: ٣٢] ويدخل في المصطفين الظالم لنفسه بالمعصية والمقتصد والسابق المقرب، فالهداية إلى التوحيد أمر عظيم، روى البخاري عن أبي سعيد أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**» **قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعَرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ..»**.

تفرح بسبق عنايته بك واختصاصه لك بالهداية، والعناية بك قبل أن توجد، وأن تُكتب قبل خلقك أنك من أهل هذا الدين.. فإنك مهما عملت من جهد للخير فبسبق أوّليته قبل ذلك، بأن كتب في الأزل أن يخلقك وأن يهديك..

تفرح لأنه يناديك من قُرْب، ويتلقاك من البُعد، ويطبب لك جرحك لنفسك بالمعصية؛ فيبتليك أو يتوب عليك أو كلاهما، وإن ابتلاك فليس بكل الذنوب بل ببعضها، بل بالقليل ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشُّورَى: ٣٠]

تفرح أن الجنة تُعدّ، ويزينها الله تعالى كل يوم، ورى أحمد، والبيهقي في الشعب «..**خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُفْطِرُوا، وَيُزَيِّنُ اللهُ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ " ثُمَّ قَالَ: «يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمُؤْنَةَ وَالْأَذَى، وَيَصِيرُونَ إِلَيْكَ..**» [شعب الإيمان (٥/ ٢٢٠)، وأحمد في مسنده].

يفرح المؤمن هنا بما أمر الله، منتظرا أن تتم له الفرحة هناك.. ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾ [فَاطِر: ٣٤-٣٥].

وعن بعض السلف قال: ذُكر لنا أن الرجل إذا دخل الجنة فصوِّر صورة أهل الجنة وأُلبس لباسهم وحُلي حلاهم ورأى أزواجه وخدمه ومساكنه في الجنة يأخذه سوار فرح، لو كان ينبغي أن يموت لمات فرحا، فيقال له: أرأيت سوار

فرحتك هذه؟ فإنها قائمة لك أبدا. [حلية الأولياء لأبي نعيم عن عبد بن حميد، موقوفا على ثابت البناني].

ولذا قال تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا..﴾ [هُود: ١٠٨] صدق الله العظيم.

عن هذه السعادة نبحث والى بلاد الأفراح نرحل.. فاللهم بلغنا المنزل.

وصلى الله وسلم وبارك على أكرم خلقه محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس

مركز غراس للإنتاج الفكري ٥

المقدمة ٧

الآن.. تجديد البدايات ١٠

الرحمة في تناول الطيبات حيث أُمرت، وتركها حيث أُمرت ١٢

افتقار الخلق لتشريع ربهم تعالى وطاعته كما هم مفتقرون إلى إطعامه إياهم وربوبيته ١٥

المصالح هي المقصودة والمشقات تابعة وجارية على قوانين دارنا وسعْنا تكاليفَه، ووسعَنا رزقُه ١٧

الأعمال ومنافعها ومشقاتها العارضة ونتائجها المتولدة، مكتوبة للعبد ٢٠

العبادة والتوكل قرينان فاعمل بحوله لا بحولك، وقوته لا بقوتك، تكن محمولا ومعانا ٢٢

الرحمة فيما أمر لا فيما تظن ٢٥

من خلق ورزق، له الأمر والشرع، ومن له الأمر والشرع هو الذي يملك القدر.. فكيف يطاع غيره؟ ٢٧

شرائع الله لتحصيل مصالح الدارين على وجه العموم والإطراد ٣٠

الانكسار بين يدي الله تعالى ٣٣

للترك والتناول بأمر الله طعم أعلى من الترك والتناول على مقتضى الطبع ... ٣٦

أعظم النعم في الشرائع دلالتها على رضا الله تعالى ومحبته ٣٧

الاستغفار والتوبة خير صاحب ومستصحب في أول الطريق وخلاله وآخره ... ٤٠

لطلب المغفرة طريق ٤٣

الاستغفار والتوبة تمنع الذنوب من تبديل الفطرة وتحويرها وطمس نورها ... ٤٦

ترك الذنوب لطلب اليقين ٤٩
قيمة أصحاب اليقين في الأمم ودورهم ولحظات مفصلية في التاريخ ٥٢
الذنوب نجاسات.. وقد تذهب بأصل اليقين ٥٤
الاستغفار والتوبة تمنع الغواية كما تمنع الضلال ٥٧
الصيام.. والحراك بهذا الدين ٦٠
الأعمال بمتعلقها ٦٤
القُــرب طلب الصديقين وغاية العُبّاد ٦٧
ذِكر الله في كل حال بحسب ذلك الحال ٧١
معاني بعض الذِكر وأثره في اليقين وكمال الإرادة ٧٤
العفة من أخلاق الصُوّام أهل هذا الدين ٧٧
القرآن رسائل الله إليك ٨٠
إلى الصلاة تأوي ومنها تنطلق ٨٤
التقوى غاية ٨٨
مجالات التقوى وآفاقها من باطن الصدور إلى محراب العبادة، إلى واقع الناس، إلى قيادة الأمة ٩١
الصيام جزء من منهج لا يتم الصيام إلا بقبول المنهج كله ٩٥
الصيام شعيرة ظاهرة وهو جزء من هوية أمة ٩٩
خاتمة الصيام والأعمال وأفراح المؤمن ١٠٣
فهرس العناوين ١٠٩